دراسات في
تاريخ الدولة الأموية

٤١-١٣٢هـ /٦٦١-٧٥٠م

د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف
أستاذ التاريخ الإسلامي - جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يلتقي الأمويون ـ الذين تنسب إليهم الدولة الأموية ـ في نسبهم مع رسول الله ﷺ . وسائر بني هاشم في عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة فجدهم ، هو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

وكان لبني عبد مناف بفرعيهم الهاشمي والأموي الزعامة في مكة ، وترجع هذه الزعامة إلى عهد جدهم قصي بن كلاب ، الذي استطاع إقصاء قبيلة خزاعة عن مكة وأن يتولى أمورها الدينية والمدنية ، حيث أسس دار الندوة المشهورة في التاريخ والتي كانت بمثابة برلمان لقريش ، تناقش فيه أمورها ومشاكلها المهمة . وعلى الرغم من القرابة القريبة بين بني أمية وبني هاشم ، فقد كان يوجد بينهم نوع من التنافس والتسابق على الشرف والسيادة في مكة ، ولكن الأمر لم يخرج من نطاق التنافس ، ولم يصل إلى حد العداء والخصومة ، كما يزعم بعض المؤرخين (١) .

وعندما جاء الإسلام أسلم عدد قليل من الأمويين ، بل كانوا من السابقين إلى الإسلام ، ومنهم عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، وتبعه أبناء عمه عمرو وخالد وأبان والحكم ، أبناء سعيد بن العاص بن أمية ، ولقد كان هؤلاء الرجال الذين أسلموا من بني أمية موضع حب الرسول ﷺ ، وثقته ، فقد زوج عثمان بن عفان من بنتيه رقية وأم كلثوم ، ثم استعمل أبناء سعيد بن العاص على الولايات ، فقد ولى عمرو بن سعيد بن العاص على قرى خيبر ووادى القرى وتيماء وتبوك ، واستعمل خالد بن سعيد على صنعاء ، وأبان بن سعيد على البحرين ، كما استعمل الحكم بن سعيد على سوق مكة بعد فتحها (٢) .

لكن بقية بني أمية امتنعوا عن الدخول في الإسلام منذ البداية ، بل وقفوا موقفاً عدائياً سافراً ضد الرسول ﷺ ، وظلوا على موقفهم هذا إلى فتح مكة ، ويوم الفتح أسلموا جميعاً ، وسر النبي ﷺ بإسلامهم ومنح زعيمهم أبا سفيان بن حرب بن أمية امتيازاً لم يمنحه أحداً من زعماء قريش ، حيث قال : « .. ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ... » (٣) . ومنذ أسلم سائر الأمويين وهم موضع تقدير الرسول ﷺ ، فبعد فتح مكة مباشرة كان أول وال ولاه الرسول عليها ـ وهي أشرف بلاد الله ـ رجلاً من بني أمية وهو عتاب بن أسيد بن أبي العيص ابن أمية (٤) ، كما استعمل أبا سفيان ابن حرب على نجران ، وجعل ابنه معاوية من كتاب الوحي بين يديه عليه الصلاة والسلام . . واستعمال النبي ﷺ . لرجالات بني أمية والاستعانة بهم في إدارة الدولة ، وفوق ذلك استعمال بعضهم في أمور العقيدة ، مثل كتابة الوحي كل ذلك يدل على كفاءتهم وأمانتهم ، فلو لم يكن الرسول . مطمئناً إلى كفاءتهم وأمانتهم لما عهد إليهم بعمل من الأعمال ، لأن النبي لم يكن يحابي أحداً ـ حاشا لله ـ ولم يكن يستعمل إلا أهل الكفاية والأمانة ، فهو القائل : « من ولى من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلاً وهو يجد من أصلح منه فقد خان الله ورسوله » (٥) .

ولما لحق الرسول بالرفيق الأعلى اقتدى خلفاؤه الثلاثة ـ أبو بكر وعمر وعثمان ـ به في الاستعانة ببني أمية ، والاستفادة بكفاءتهم وخبرتهم في جلائل الأعمال ، فقد كان على رأس أحد الجيوش الأربعة التي وجهها أبو بكر لفتح الشام أحد أبناء البيت الأموي ، وهو يزيد بن أبي سفيان ، ومعه أخوه معاوية بن أبي سفيان ، كما اشترك أبو سفيان نفسه في معركة اليرموك (٦) . ولما توفي يزيد بن أبي سفيان في طاعون عمواس سنة ١٨هـ عين عمر بن الخطاب أخاه معاوية والياً على دمشق

مكانه ، بل ضم إلى معاوية ولايات الشام كلها (٧) ، وكذلك استمر الحال في عهد عثمان رضي الله عنهم أجمعين ، بل كان توسع عثمان في استعمال بني أمية وإسناد المناصب إليهم ـ وهو عمل سبقه فيه الرسول وصاحباه أبو بكر وعمر ـ من أسباب الفتنة والشغب عليه من قبل الخوارج والأشرار الذين كانت بضاعتهم من الفقة بأمور الدين قليلة . وحقدهم على الخليفة كبير .

وخلاصة القول : أن الأمويين وإن كان تأخر إسلام بعضهم وكانت لهم مواقف عدائية من الرسول والإسلام ، إلا أنهم لما أسلموا عام الفتح أظهروا من حسن البلاء في الفتوحات وقاموا بأدوار بارزة في رفع راية التوحيد ، وأبدوا من الإعزاز لدين الله والجهاد في سبيله ما لفت إليهم الأنظار ، حتى رأينا الرسول ﷺ يسند إلى كثيرين منهم أجل الأعمال وأخطرها ، وكذلك فعل خلفاؤه الراشدون الثلاثة من بعده . ولما قامت دولة الأمويين حققوا كثيراً من الإنجازات العظيمة ، ومن أعظمها حركة الفتوحات الواسعة التي قاموا بها ، فليس من شك في أن الأمويين قد حققوا أكبر حركة فتوحات إسلامية عرفها تاريخ الإسلام ، حيث امتدت دولتهم من الأندلس وجنوب فرنسا في أقصى جنوب غرب أوروبا إلى حدود الصين ، ومن آسيا الوسطى إلى المحيط الهندي ، وهذا إنجاز هائل ، ولم تقتصر جهودهم على الفتوحات ، بل عملوا بجد وإخلاص على نشر الإسلام بين أبناء البلاد المفتوحة ، وعلى نشر اللغة العربية وآدابها وعلوم الإسلام بصفة خاصة ، كما تجلت مقدرة الأمويين في الإدارة ، إدارة البلاد المفتوحة ، ونشر الأمن والأمان فيها ، وهذا في حد ذاته عمل كبير ، لأن إدارة مثل هذه الدولة التي ترامت أطرافها والتي كانت تضم شعوباً وأمماً عديدة ليس بالأمر السهل .

ولكن رغم كل الأعمال الجليلة التي قام بها الأمويون ، ورغم جهادهم وبلائهم في سبيل الله الذي بدأ منذ عهد الرسول ﷺ إلا أن صورتهم في كتب التاريخ بصفة عامة - القديم منها والحديث - جاءت مشوهة ، حيث تنوسيت أعمالهم العظيمة أو قلل من شأنها ، وضخمت أخطاؤهم اليسيرة ، بل نسبت إليهم أخطاء لم يرتكبوها . وصبغ عصرهم بصفة عامة - بألوان قاتمة مظلمة ونالهم ظلم كبير.

وهناك العديد من الأسباب والعوامل التي أسهمت في رسم تلك الصورة المظلمة لبني أمية وعصرهم ، منها :

١ - موقف العداء الذي وقفه بعض الأمويين من الرسالة المحمدية في البداية ، فمع أنهم أسلموا - عام الفتح - وحسن إسلامهم ونالوا تكريم الرسول - كما رأينا - إلا أن بعض خصومهم استغلوا هذا الموقف القديم ، واتخذوا منه ذريعة للنيل منهم والتشهير بهم.

٢ - منذ استشهاد عثمان بن عفان رضي الله عنه وبداية خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، دخل الأمويون في صراع سياسي مع آل البيت ، فمالت عواطف كثير من المسلمين إلى آل البيت نظراً لمكانتهم من رسول الله ، وعمق هذا الشعور - ما تعرض له بعض أفراد آل البيت من مآس على أيدي بعض الأمويين ، مما خلق شعوراً يكاد يكون عاماً بالكراهية للأمويين .

٣ - ما وقع فيه بعض خلفاء بي أمية من أخطاء جسيمة ، مثل غزو المدينتين المقدستين مكة والمدينة مما هز مشاعر المسلمين وتردد صداه في كتاباتهم .

٤ - كان لبني أمية أعداء ومنافسون كثيرون ، من الشيعة

والخوارج ، ومن الحاقدين عليهم والطامعين في الحكم - مثل المختار الثقفي ، وابن الأشعث وابن المهلب وغيرهم - وفوق ذلك الموالي الفرس ، الذين لم ينس بعضهم زوال دولتهم على أيدي العرب ، فصبوا غضبهم وحقدهم على بني أمية باعتبارهم أصحاب الدولة واتهموهم بالتعصب عليهم لمصلحة العرب .

تجمعت كل هذه العناصر الموتورة - وكان لكل منها شعراء وخطباء ورواة للأخبار - وراحت تبث الشائعات في جوانب العالم الإسلامي ضد بني أمية وترميهم بكل التهم والأكاذيب ، وظلت هذه الأخبار والشائعات يتردد صداها على ألسنة الناس حتى بدأ عصر التدوين ، فدون المؤرخون كل ما وصل إلى سمعهم سواء أكان حقاً أم باطلاً ، صدقاً أم كذبا ، وكان من سوء حظ الأمويين أن تاريخهم دون في عصر خصومهم العباسيين وقد لعبت تلك الخصومة - التي بلغت حد استئصال الأمويين ونبش قبورهم - دورها في تشويه هذا التاريخ وطمس معالمه لأن كثيرين من ضعاف النفوس من المؤرخين والكتاب كان يتقرب إلى العباسيين بالنيل من الأمويين .

ولكن على الرغم من ذلك كله فإنه يمكن للباحث المنصف المتجرد من الميول أو الهوى والأحكام المسبقة أن يستخلص التاريخ الصحيح لبني أمية ويضعهم في المكان اللائق بهم في مسيرة التاريخ الإسلامي .

فبنوا أمية كغيرهم من رجال التاريخ ودولتهم كغيرها من الدول ، لها إيجابياتها وسلبياتها ، ولهذا فنحن سنسلط الأضواء في هذه الدراسة على جوانبها السياسية المختلفة لنعرف ما لها من حسنات وسيئات ، آخذين في الاعتبار الظروف التي كانت تعيشها ، وأن رجالها - كغيرهم من البشر - ليسوا معصومين من الوقوع في الخطأ . وبمثل هذه النظرة

الحيادية تكتمل لنا الفائدة الكبرى من دراسة التاريخ وهي العبرة والعظة ، إذ لا مصلحة للمسلمين في تزييف تاريخهم وتشويه سمعة من صنعوا هذا التاريخ .

فسنحاول إعطاء صورة حقيقية بقدر الإمكان للقارئ عن خلفاء بني أمية الأربعة عشر ونعرفه بهم وبأعمالهم وإنجازاتهم وبصفة خاصة في ميدان الفتوحات والإدارة والحضارة .

كما سنلم ببعض المشاكل التي واجهتهم والأحزاب والفرق التي ناصبتهم العداء من أول أيام دولتهم حتى نهايتها .

هذا وبالله التوفيق .

* * *

الفصل الأول

الخلفـاء الأمويـون

١ ـ معاوية بن أبي سفيان

مؤسس الدولة الأموية هو الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان ابن حرب ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف [٨] . وكان معاوية رضي الله عنه يلقب بخال المؤمنين [٩] ، لأن أخته أم المؤمنين ، أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي .

ولد معاوية قبل الهجرة بنحو خمسة عشر عاماً ، والمشهور أنه أسلم يوم فتح مكة مع أبيه وأخيه يزيد وسائر قريش ، ولكن يروي عنه أنه أسلم قبل ذلك بعام ، أي في عام عمرة القضاء سنة ٧ هـ ولكنه كتم إيمانه عن أبيه ، ولما دخل النبي مكة يقول معاوية : « أظهرت إسلامي ، فجئته فرحب بي وكتبت بين يديه » [١٠] .

أصبح معاوية منذ أعلن إسلامه عام الفتح من كتاب الوحي ، وشهد مع رسول الله ﷺ غزوة حنين وأعطاه مائة من الأبل وأربعين أوقية من الذهب . وكان موضع ثقة الرسول ﷺ ، وأثر عنه كثير من الدعاء لمعاوية بالهداية والمغفرة . يقول الذهبي : « روى جماعة عن العرباض أنه سمع النبي يقول : « الهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب » [١١] . والأخبار في ذلك مستفيضة .

وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه شارك معاوية في فتوح الشام تحت قيادة أخيه يزيد ، ثم انفرد بالإمارة في الشام منذ عهد عمر بن الخطاب ، وكان موضع رضا وإعجاب عمر وناهيك بمن يرضى عنه عمر ، وهو من هو

حزماً وصرامة وشدة محاسبة للولاة والعمال ، فاستمرار معاوية في ولاية الشام طوال خلافة الفاروق عمر أكبر دليل على كفاءته وأمانته وحسن سياسته وعظيم بلائه في خدمة الإسلام ونشر لوائه ، وقد ذكر غير واحد من المؤرخين الثقات أن عمر رضي الله عنه جمع الشام كلها لمعاوية ، لما رآه قائما بعمله ساداً ثغوره ناهضاً بمسئولياته (١٢) .

ولما توفي عمر وتولى الخلافة عثمان بن عفان ﷺ ، بقى معاوية واليا على الشام ، ضابطاً لعمله حارسا لحدوده ، متصدياً بكل حزم لأعداء الإسلام محبوباً من رعيته . كما قام في عهد عثمان بأعمال جليلة كثيرة ، من أهمها إنشاء الأسطول الإسلامي الذي حمى به شواطئ المسلمين ، وغزا جزر البحر الأبيض المتوسط . كما سنذكر فيما بعد .

معاوية في خلافته . صفاته ومكانته :

بعد استشهاد علي بن أبي طالب ﷺ ، بايع أنصاره في العراق ابنه الحسن ﷺ بالخلافة ، ولكن الحسن كان حسن التقدير للأمور ، فرأى أن استمرار الصراع بينه وبين معاوية ، سوف ينتج عنه كثير من الحروب وسفك دماء المسلمين ، لذلك آثر مصلحة المسلمين وحقن دمائهم ومال إلى مصالحة معاوية وتنازل له بالفعل عن الخلافة سنة ٤١هـ ، ودخل معاوية الكوفة وبايعه الحسن والحسين ﷺ ، وبايعه الناس جميعا واستبشر المسلمون خيراً بهذه المصالحة التي وضعت حداً لسفك الدماء والفتن بين المسلمين ، وسموا هذا العام عام الجماعة (١٣) .

وهذه إشارة واضحة لرضا الناس عن صنيع الحسن بن علي ﷺ والحق أن موقف الحسن كان في غاية الروعة والعظمة ، حيث ارتفع فوق كل الآلام والجراح وآثر مصلحة المسلمين على نفسه ، وجاء فعله هذا

مصدقاً لنبوءة جده عليه الصلاة والسلام . حيث روى عنه أنه نظر إلى الحسن وهو على المنبر ثم قال: « ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (١٤) .

وهذاالحديث الشريف عند العلماء ـ من دلائل النبوة ، فقد صدق الحسن بمصالحته معاوية ما تنبأ به جده عليه الصلاة والسلام .

ورضى عامة المسلمين عن صنيع الحسن بل باركوه واستبشروا به ، ما عدا طائفة من سفهة أهل العراق من الشيعة ، حيث كرهوا صنيع الحسن ، بل وصفوه بأنه مسود وجوه المؤمنين (١٥) .

ولكنه ﷺ لم يواجه سفههم بسفه ، بل قال لهم في هدوء كرهت أن اقتلكم على الملك .

استقبل المسلمون خلافة معاوية استقبالاً حسناً ، لأنها جاءت بعد فترة طويلة من الفتن والأهوال وسفك الدماء في معركتي الجمل وصفين ، واعتبروها نهاية لهذه الفترة المظلمة في تاريخهم وبداية لعهد جديد ، تجتمع فيه كلمة الأمة الإسلامية ، وتستأنف مسيرتها في الفتوحات والجهاد في سبيل الله ، ولذلك وصفوا عام تولية معاوية الخلافة بعام الجماعة ، وهو وصف معبر تماماً .

وقد كان معاوية عند حسن ظنهم ، وكان جديراً بالمنصب الخطير الذي تولاه وسيضطلع به على أحسن وجه ، فقد تولى معاوية الخلافة ووراءه تجربة طويلة في الحكم والإدارة وسياسة الناس ، فولايته على الشام ـ قبل خلافته ـ لمدة تزيد على العشرين عاماً أكسبته خبرة كبيرة ، هيأت له النجاح في خلافته ، والحق أن معاوية كان يتمتع بصفات عالية ترشحه ليكون رجل الدولة الأول ، والمؤرخون مجمعون على أنه كان

لمعاوية نصيب كبير من الذكاء والدهاء والسماحة والتسامح والحلم والكرم وسعة الأفق ، وسأكتفي هنا بإيراد نص لمؤرخ معروف بميوله الشيعية ؛ يعني لا يتهم بمحاباة معاوية ، ذلك المؤرخ هو ابن طباطبا الذي يقول في كتابه الفخري في الآداب السلطانية : « وأما معاوية ﷺ ، فكان عاقلاً في دنياه لبيباً عالماً حليما ، ملكاً قوياً جيد السياسة ، حسن التدبير لأمور الدنيا ، عاقلاً حكيما فصيحاً بليغاً ، يحلم في موضع الحلم ، ويشتد في موضع الشدة ، إلا أن الحلم كان أغلب عليه ، وكان كريماً باذلاً للمال محباً للرياسة ، شغوفا بها وكان يفضل على أشراف رعيته كثيراً ، فلا يزال أشراف قريش ، مثل عبد الله بن العباس ، وعبد الله ابن الزبير ، وعبد الله بن جعفر الطيار ، وعبد الله بن عمرو ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأبان بن عثمان بن عفان ، و ناس من آل أبي طالب ﷺ ، يفدون عليه بدمشق ، فيكرم مثواهم ، ويحسن قراهم ويقضي حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ، ويجبهونه أقبح الجبه ، وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعدهم إلا بالجوائز السنية ، والصلات الجمة » .. ثم استمر في تعداد مواهب معاوية وصفاته إلى أن يقول : « واعلم أن معاوية كان مربي دول وسائس أمم ، وراعي ممالك ، ابتكر في الدولة أشياء لم يسبقه إليها أحد » [١٦] . هذا كلام مؤرخ شيعي عن معاوية ، لم يملك إلا أن ينطق بالحقيقة وينسب الفضل لأهله ، والواقع ليس المؤرخون وحدهم هم الذين أثنوا على معاوية وصفاته الملوكية ، بل روى عن كثير من الصحابة ما هو أهم من ذلك ، فقد روى ابن الأثير في أسد الغابة عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: « مارأيت أحداً بعد رسول الله أسود من معاوية ، فقيل له : وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ؟ فقال : كانوا والله خيراً من معاوية وأفضل ومعاوية أسود » [١٧] .

منهج معاوية وأسلوبه في الحكم :

انعقد إجماع معظم الأمة الإسلامية على خلافة معاوية سنة ٤١هـ ، وسموا العام عام الجماعة ـ كما سبقت الإشارة ، فأخذ يعمل بكل ما أوتي من ذكاء ودهاء على تضميد جراح الأمة ، وعلى توطيد دعائم الأمن والاستقرار في ربوع العالم الإسلامي ، فانتهج سياسة داخلية تقوم على عدة دعائم ثابتة ، تتلخص فيما يلي :

أولا : الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم ، وبخاصة بنو هاشم ، وبصفة أخص أولاد علي بن أبي طالب ﷺ ، الذين كانوا يعتقدون أنهم أفضل منه وأولى بالخلافة ، فراح بكرمه وسخائه يستل حفيظتهم ، وبحلمه وعزيمته يقوم عوجهم ، حتى اجتمعت عليه القلوب ودنت منه النفوس .

خطب مرة في أهل الحجاز بعد توليه الخلافة ، فاعتذر عن عدم سلوكه طريقة الخلفاء الراشدين قبله ، فقال:« وأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على أعمالهم؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم! رحمة الله ورضوانه عليهم . غير أني سلكت بها ـ يقصد الخلافة ـ طريقاً لي فيه منفعه ، ولكم فيه مثل ذلك ، ولكم فيه مؤاكلة حسنه ، ومشاربة جميلة ، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة ، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه ، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذني (١٨) ، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فارضوا مني ببعضه ، وإياكم والفتنة فلا تهموا بها ، فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة ، وتورث الاستئصال ، أستغفر الله لي ولكم » (١٩) .

الحق أن معاوية كان مدرسة سياسية كبرى ، ولا يزال التعبير

المشهور - شعرة معاوية - يرمز إلى حسن السياسة وتدبير الأمور ، فبمثل هذه السياسة وتلك السيرة صار معاوية- كما يقول ابن طباطبا- خليفة العالم وخضع له أبناء المهاجرين والأنصار ، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة [٢٠] .

ولقد نجح معاوية نجاحاً باهراً في سياسته ، وحول خصومه إلى أصدقاء بل أولياء ، أخذت ألسنتهم تلهج بالثناء عليه ، وقد مر بك طائفة من أقوال معاصرية من الصحابة عنه ، ولم يكن ذلك قاصراً على أيام خلافته فقط ، بل كانوا يشيدون بذكره ، ويعددون مناقبه بعد وفاته ، خصوصاً عندما تدلهم الأمور وتعم الفتن ، ففي الليلة الظلماء يفتقد البدر كما يقال . فقد حدث هشام بن عروة بن الزبير قال: « صلى عبد الله بن الزبير يوماً ، فوجم بعد الصلاة ساعة ، فقال الناس: لقد حدث نفسه ، ثم التفت فقال : لا يبعدن ابن هند - يقصد معاوية - إن كانت فيه لمخارج لا نجدها في أحد بعده أبداً ، والله إن كنا لنفرقه - أي نخوفه - وما الليث الحرب على برائنه بأجرأ منه ، فيتفارق لنا ، وإن كنا لنخدعه ، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه ، فيتخادع لنا ، والله لوددت أنا متعنا به ما دام في هذا حجر ، وأشار إلى أبي قبيس » [٢١] .

فلا عجب إذن أن تثمر سياسة معاوية هذه ثمارها الطيبة وتفعل فعلها في النفوس ، حتى رأينا أن طائفة كبيرة من الصحابة الذين امتنعوا عن بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، مثل سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن ا لزبير وغيرهم كثيرون ، هؤلاء الذين امتنعوا عن بيعة علي بايعوا معاوية طائعين ، لأنه ملكهم بالكرم والحلم . كما يقول الذهبي [٢٢] .

وبمثل سياسته مع أهل الحجاز بعامة والصحابة وأبنائهم خاصة ،

عامل معاوية زعماء القبائل وشيوخها ووجهاء الناس ، فعم الهدوء والطاعة والأمن والاستقرار ربوع العالم الإسلامي طوال عهده الذي قارب العشرين عاماً.

ثانيا : كان معاوية يفهم فهما عميقاً أحوال الأمة التي يحكمها ، ويعرف طبيعة الناس وخبايا نفوسهم ، وكان يعرف أن قسماً لا بأس به من الأمة قبل خلافته على مضض ، فنهج السياسة التي تكفل له رضا هؤلاء وطاعتهم ـ كما سبق ذكره ـ وأما من لم تجد معه هذه السياسة فليأخذه بالحزم والشدة ، وذلك أمر مطلوب في سياسة الناس . وكان يعرف أنه لا يستطيع وحده ـ مهما كانت مقدرته وطاقته ـ أن يحكم هذه البلاد الواسعة . وأنه لابد من أعوان ، فاختار أعوانه من أكفأ وأقدر وأعقل وأذكى رجال عصره ممن اشتهروا بالدهاء وحسن السياسة والتأتي للأمور أمثال ، عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه ـ الذي الحقه بنسبه وأصبح يعرف بزياد بن أبي سفيان ، كما كان يعتمد على أفضل رجال بيته مثل أخيه عتبه بن أبي سفيان وأبناء عمومته مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وغيرهم . والحق أن هؤلاء جميعاً كانوا رجال حرب وسياسة وإدارة من الطراز الأول ، وقد عرف معاوية كيف يستخلص أفضل ما لديهم من طاقات ويسخرها لمصلحة الدولة ، فاستقرت الأمور وعم الأمن في أرجاءالعالم الإسلامي ، وهذه نتيجة عظيمة بدون شك .

ثالثا : القاعدة أو الدعامة الثالثة التي قامت عليها سياسة معاوية الداخلية ، والتي استطاع بها أن يوطد أركان دولته ، وأن يضمن لها الأمن والاستقرار أنه كان يباشر الأمور بنفسه ، ويعرف كل صغيرة وكبيرة عن أحوال الولاة والناس ، فرغم أنه استعان بأمهر رجال عصره ،

إلا أنه لم يكتف بذلك ، ولم يركن إلى الراحة والدعة ، بل كرس كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين.

ولقد قدم لنا المؤرخ المسعودي (٢٣) تقريراً مفصلاً عن يوم كامل من أيام معاوية وكيف كان يقضي وقته في تصفح أمور الدولة وتصريف شؤونها ، وأنه لم يكن ينام إلا ثلث الليل الأوسط.وما تبقى بعد ذلك من ليله ونهاره فقد كان ينفقه في رعاية دولته ورعاياه.

وبهذه السياسة الواضحة التي ترتكز على تلك القواعد الثابتة استقرت أحوال الدولة الإسلامية في عهد معاوية وسادها النظام والأمن بصفة عامة ، فاطمأنت الأمة إلى قائدها والتف الناس حول خليفتهم ولم يعكر هذا الاستقرار سوى الخوارج الذين لم تجد معهم السياسة اللينة ، وكان موقفهم من معاوية خاصة والأمويين عامة أكثر تطرفاً مما كان عليه حالهم مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، مما اضطر معاوية أن يخرج عن منهجه السياسي العام معهم ، وأن يعاملهم بالحزم الذي يستحقونه ، كما سنرى ذلك في موضعه من هذه الدراسة إن شاء الله .

سياسة معاوية الخارجية :

كما كان لمعاوية سياسة داخلية واضحة تقوم على دعائم ثابتة ، وأن هذه السياسة كفلت الأمن والهدوء والاستقرار في الداخل ، فقد كانت له سياسة خارجية واضحة ومدروسة بعناية ، وترتكز أيضاً على دعائم ثابتة ، كفلت لدولته حماية حدودها ، وبسط هيبتها على أعدائها ، ودلت هذه السياسة على فهم معاوية العميق لظروف دولته والأخطار التي تحيط بها ، والتي رأى أن من واجبه تجنبها إياها ، فالدولة الإسلامية في عهد معاوية كانت واسعة الرقعة مترامية الحدود ، فقد

كانت تشمل الجزيرة العربية والعراق ، وجميع أقاليم الدولة الفارسية القديمة ، والشام ومصر ، وهذه البلاد تم فتحها في عهد الخلفاء الراشدين ، وكانت حركة الفتوحات قد فترت في أواخر عهد عثمان وكل عهد علي بسبب الفتن والحروب الأهلية ، فلما انتهت هذه الفترة الصعبة وآلت الخلافة إلى معاوية في عام الجماعة واستعادت الأمة وحدتها واجتمعت كلمتها ، كان من المتوقع أن يستأنف معاويه حركة الفتح ـ وكان جديراً بذلك ـ غير أن الملاحظ أن عهده لم يشهد فتوحات على نطاق واسع (٢٤) .

ولم يكن ذلك تقصيراً منه ، بل كان حصافة وحسن تقدير للأمور ، فهو يعرف أن المسلمين دخلوا في صراع مع أكبر وأقوى دولتين في العالم وقتذاك ، و هما الفرس والروم ، منذ عهد أبي بكر الصديق ﷺ ، فأما الدولة الفارسية فقد أزالوها من الوجود ، وقضوا على الأسرة الحاكمة وهي الأسرة الساسانية في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ﷺ ، وأما الدولة البيزنطية ـ الروم ـ فقد أذلوها واقتطعوا منها أهم وأغنى ولاياتها في الشرق ، الشام ومصر ، ولكن بقية ممتلكاتها في آسيا الصغرى وأروبا وشمال إفريقيا لم تمس ولم يقترب المسلمون منها ، ومعنى هذاالوضع أنه إذا كان خطر الدولة الفارسية قد زال فقد كان على معاوية أن يعمل على تثبيت الفتوحات التي تمت بسرعة فائقة في بلاد فارس ، وأن يعمل على نشر تعاليم الإسلام بين الشعب الفارسي حتى يعرفوه عن قرب ، ويدركوا تعاليمه الروحية والمادية ، وفي الحقيقة بذل معاوية جهداً كبيراً في تحقيق هذه الغاية ، ونجحت سياسته في هذا المجال على المدى البعيد نجاحاً كبيراً ، وبدأ الفرس يتحولون إلى الإسلام بأعداد كبيرة وفي وقت قصير (٢٥) وتنفيذاً لهذه السياسة فقد عمد معاوية إلى إسكان عشرات الألوف من الأسر العربية في بلاد فارس ، وبصفة خاصة

في خراسان [٢٦] . حتى يكون اختلاط العرب بالفرس سبيلاً إلى انتشار الإسلام واللغة والثقافة العربية ، خصوصاً وأن هؤلاء العرب كان معظمهم من التابعين وفيهم بعض الصحابة ، وفي الوقت الذي كان فيه معاوية مشغولاً بتثبيت الفتوحات ونشر الإسلام في فارس ، فإنه لم ينس تأمين حدود هذه البلاد ومعرفة ما وراءها ، فكانت الغزوات تنطلق من خراسان وتلامس ما وراء النهر وتنطلق من جنوب فارس إلى إقليم السند ، وكان كل ذلك تمهيداً لمراحل من الفتح ستأتي . وقد تكفل بتنفيذ سياسة معاوية هذه في بلاد فارس ولاة أكفاء ، وهم عبد الله بن عامر والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله ، وهكذا قدر معاوية - وكان بعيد النظر في هذا - أن تثبيت الفتوحات ونشر الإسلام في فارس ، حتى يطمئن الناس في كنفه ، أفضل وأجدى من الفتح والتوسع في الخارج ، وقد نجحت هذه السياسة وآتت ثمارها في هذا الجناح الشرقي من الدولة الإسلامية ، أما الجناح الغربي - الشام ومصر - المواجه للدولة البيزنطية ، والذي كان إلى وقت قريب من ممتلكاتها فقد تطلب سياسة مغايرة ، وحظي باهتمام معاوية ، لأن الدولة البيزنطية لا زالت موجودة وقوية ولا زالت تحاول العودة إلى الشام ومصر ، لذلك ركز معاوية سياسته علي صد خطر البيزنطيين ، بل منازلتهم في ديارهم وجعلهم ينشغلون بالدفاع عن بلادهم .

وفي الحقيقة كان معاوية أكثر المسلمين فهما لسياسة الدولة البيزنطية وخبرة في التعامل معها ، فهو بحكم طول ولايته على الشام كان كثير الاحتكاك بهم ، فأصبح علىٰ وعي تام بأهدافهم ومرامي سياستهم ، وقرر أن يضغط باستمرار على الدولة البيزنطية وأن يشغلها بالدفاع عن نفسها في أكثر من ميدان حتى تتوزع جهودها ، وقرر أن ينازلها براً وبحراً .

أولا : في البر وصلت فتوحات المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين سلسلة جبال طوروس في شمال الشام ، وتوقفت عند هذا الحد ، لصعوبة هذه الجبال من ناحية ولانشغال المسلمين بالفتن والحروب الأهلية منذ أواخر خلافة عثمان بن عفان من ناحية ثانية ، وأصبحت جبال طوروس تشكل الحدود بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية ، ولما كان معاوية يعلم أنه غير قادر على اجتياز هذه الجبال في ذلك الوقت فقد قرر تسيير حملات منتظمة على حصون البيزنطيين ومعاقلهم وهي التي عرفت بالصوائف والشواتي [٢٧] وجعلهم في حالة تعبئة دائمة للدفاع عن حدودهم .

ثانيا : قرر معاوية أن ينازل البيزنطيين في البحر ، وقد مكنه من ذلك الأسطول البحري الإسلامي الذي جاهد في إنشائه وكان له الفضل الأول في إنجاز هذا الجهاز العسكري الإسلامي الكبير ، الذي مكنه من غزو العديد من جزر البيزنطيين في البحر المتوسط مثل قبرس ورودس وكريت وأرواد ، ولم يكتف بذلك بل واصل الأسطول الإسلامي زحفه حتى حاصر القسطنطينية أكثر من مرة في عهد معاوية.

ثالثا : وتمشياً مع سياسة معاوية في الضغط على الدولة البيزنطية فقد توالت حملاته وغزواته على شمال إفريقيا انطلاقاً من مصر ، ففتح إقليم المغرب الأدنى ـ تونس الحالية ـ وأسس القائد العظيم عقبة بن نافع مدينة القيروان سنة ٥٠ – ٥٥هـ لتكون قاعدة لانطلاق الفتوحات في شمال إفريقيا كله بعد ذلك.

وخلاصة القول فإن معاوية ﷺ ظل ما يقرب من عشرين عاماً يجاهد في توطيد أركان الدولة الإسلامية ، ونشر الأمن والأمان والاستقرار في ربوعها ، وحراسة حدودها ، وتوسيع تلك الحدود كلما

كان ذلك ممكنا ، وكبح جماح أعدائها ، واضفاء هيبتها على قلوبهم ، وخلف وراءه دولة قوية السلطان مرهوبة الجانب ، يرجو نفعها الأصدقاء ، ويخشى بأسها الأعداء .

ولم تقتصر جهود معاوية على ما تقدم ذكره وهو هائل وعظيم ، بل كان مبتكراً في ميدان الإدارة وتنظيم الدولة ، فقد أنشاء دواوين عديدة كان لها أعظم الأثر في حسن إدارة الدولة ، مثل ديوان البريد وديوانالخاتم كما طور الدواوين التي كانت موجودة من قبل .

* * *

٢ ــ يزيد ابن معاوية

(٦٠ ــ ٦٤ هــ)

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، أمير المؤمنين ، وأمه ميسون بنت بحدل بن أنيف الكلبي ، ولد سنة ٢٦ هـ تقريباً ، ويعد من الطبقة الأولي من التابعين ، يقول ابن كثير:« وقد ذكره أبو زرعة الدمشقي في الطبقة التي تلي الصحابة ، وهي العليا ، وله أحاديث ، روى عن أبيه معاوية أن رسول الله . قال: « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » [٢٨] .

وروى عنه ابنه خالد ، وعبد الملك بن مروان . ولد يزيد أثناء ولاية أبيه على الشام في عهد عثمان بن عفان ، فنشأ في عز الإمارة ومجدها ، وعنى أبوه بتربيته تربية عربية إسلامية ، فقد أرسله في طفولته إلى البادية عند أخواله من بني كلب ، ليشب في خشونة البادية وينشأ على الرجولة والفتوة ، ويتعلم العربية النقية ، ولقد أثمرت هذه التربية في يزيد ، فكان شاعراً فصيحاً ، وأديباً لبيباً ، حاضر البديهة ، أبي النفس ، كريماً عالي الهمة ، يحسن التصرف في المواقف.

وللعلماء في يزيد رأي حسن ـ رغم مآخذهم عليه ـ فالليث بن سعد فقيه مصر المشهور يلقبه بأمير المؤمنين [٢٩] ، حيث قال : « توفى أمير المؤمنين يزيد سنة ٦٤هـ . واعتبر أبو بكر بن العربي هذه شهادة تزكية من الليث ليزيد ، فقال: «فسماه الليث أمير المؤمنين ، بعد ذهاب ملكهم وانقراض دولتهم ، ولولا كونه عنده كذلك ، ما قال إلا توفى يزيد » [٣٠] .

وابن كثير يلقبه كذلك بأمير المؤمنين ، ويقول : « وقد كان في يزيد خصال محمودة ، من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة ،

وحسن الرأي في الملك وكان ذا جمال حسن المعاشرة » (٣١) .

والحق أن معاوية منذ أن بدأ التفكير في ولاية العهد ليزيد أخذ يحمله على حياة الجد والحزم ، والإقلاع عن حياة الترف والنعومة ، ليؤهل نفسه للمنصب الخطير الذي ينتظره ، فكان يعهد إليه بمهمات صعبة يتعرض من يقوم بها للمخاطر ، فقد أرسله على رأس الحملة التي وجهها إلى القسطنطينية ـ عاصمة الدولة البيزنطية ، وهي الحملة التي اشترك فيها كثير من الصحابة ، ومنهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، وكان هؤلاء تحت قيادة يزيد ، ولو لم يروه أهلاً للقيادة لما رضوا أن يكونوا تحت قيادته . ومعنى ذلك أن يزيد قد ارتفع إلى مستوى المسئولية الذي أراده أبوه .

يزيد الخليفـــة :

توفي معاوية ﷺ في منتصف شهر رجب سنة ٦٠هـ ، فآلت الخلافة إلى إبنه يزيد في اليوم نفسه ، وكان غائباً عن دمشق حين مات أبوه ، فأخذ له البيعة الضحاك بن قيس ، فلما حضر وأقبلت الوفود وأمراء الأجناد وأشراف العرب لتعزيته في أبيه وتهنئته بالخلافة ، صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن معاوية كان حبلاً مـن حبال الله ، مده الله ما شاء أن يمده ، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه ، وكان دون من كان قبله ، وخيراً ممن بعده ، إن يغفر الله له فهو أهله ، وإن يعذبه فبذنبه ، وقد وليت الأمر بعده ، ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل بطلب علم ، فعلى رسلكم فإن الله لو أراد شيئًا كان ، أذكروا الله واستغفروه« ثم نزل ودخل منزله ثم أذن للناس » (٣٢) .

كان معاوية يعي خطورة المسئولية التي سيتحملها ابنه وحجم

المشاكل التي ستواجهه ، ولذلك رسم له معالم الطريق ، وبين له كيف يتعامل مع المشاكل والناس ، وجاء ذلك في وصية جامعة قال له فيها قبيل وفاته : « يايزيد اتق الله ، فقد وطأت لك هذا الأمر ، ووليت من ذلك ما وليت ، فإن يكن خيراً فأنا أسعد بـه ، وإن كان غير ذلك شقيت به ، فارفق بالناس ، واغمض عما بلغك من قول تؤذي به ، وتنتقص به ، وطأ عليه يهنك عيشك ، وتصلح لك رعيتك وإياك والمناقشة وحمل الغضب ، فإنك تهلك نفسك ورعيتك ، وإياك وخيرة أهل الشرف واستهانتهم والتكبر عليهم ، ولن لهم بحيث لا يروا منك ضعفاً ولا خوراً ، وأوطئهم فراشك وقربهم إليك وأدنهم منك . ولا تهنهم ولا تستخف بحقهم فيهينوك ويستخفوا بحقك ويقعوا فيك ، فإذا أردت أمراً فادع أهل السن والتجربة من أهل الخير من المشايخ ، وأهل التقوى ، فشاورهم ولا تخالفهم ، وإياك والاستبداد برأيك فإن الرأي ليس في صدر واحد ، وصدق من أشار عليك إذا حملك على ما تعرف ، وأخزن ذلك عن نسائك وخدمك ، وشمر إزارك وتعاهد جندك ، واصلح نفسك تصلح لك الناس ، ولا تدع لهم فيك مقالاً ، فإن الناس سراع إلى الشر ، واحضر الصلاة ، فإنك إذا فعلت ما أوصيتك بـه عـرف الناس لك حقك ، وعظمت في أعين الناس ، وأعرف شرف أهل المدينة ومكة ، فإنهم أهلك وعشيرتك ، واحفظ لأهل الشام شرفهم فإنهم أهـل طاعتك ، واكتب إلى أهل الأمصار بكتاب تعدهم فيه منك بالمعروف ، فإن ذلك يبسط آمالهم ، وإن وفد عليك وافد من الكور فاحسن إليهم وأكرمهم ، فإنهم لمن ورائهم ، ولا تسمعن وقل قاذف ولا ماحل ، فإني رأيتهم وزراء سوء » (٣٣) .

هذه هي وصية معاوية لابنه ، والتي ضمنها تجربته في الحكم لمدة تقرب من نصف قرن ـ أميراً وخليفة ـ والتي تعتبر من أهم الوثائق في فن

الحكم والسياسة والإدارة والتعامل مع الناس ، ولقد حاول يزيد ترسم هذه السياسة التي رسم له أبوه معالمها ، فقد دأب على إكرام أشراف أهل الحجاز والإغداق عليهم بالأموال ، وبصفة خاصة بنو هاشم ، مثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، ومحمد بن علي بن أبي طالب ، وعلي بن الحسين بن علي .

ولم تكن سماحة يزيد قاصرة على بني هاشم ، بل عمت أهل الحجاز جميعاً ، وكانت غالبة عليه تجاه جميع الناس ، وفي الحقيقة كان يمكن أن تكون أيام يزيد امتداداً لأيام أبيه ، وقد كانت كذلك في أمور الدولة بصفة عامة ، فظلت الدولة قوية ، وحدودها محمية بل استمرت حركة الفتوحات في نشاطها ، والأمن والاستقرار يسود أرجاءها ، لكن الذي عكر الصفو وجعل عهد يزيد في نظر كثير من المؤرخين عهد ظلم وطغيان ، عدة حوادث ، منها استشهاد الحسين بن علي ، وغزو المدينة المنورة ، وغزو الكعبة لحصار عبد الله بن الزبير ، وعندما تدرس هذه الحوادث دراسة علمية مجردة فربما قلت حدة اللوم الموجه ليزيد والتمس له بعض العذر ، وعلى كل حال سنرجئ الحديث عن قصة الحسين بن علي وحركة عبد الله بن الزبير إلى موضعهما من هذه الدراسة ، ونتناول الآن قصة ثورة أهل المدينة على يزيد وأسبابها ونتائجها .

ثورة أهل المدينة وموقعة الحرة سنة ٦٣هـ :

ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية ، وخلعوا طاعته ، وذلك في سنة ٦٣هـ وهذه الثورة في الواقع من أغرب وأعجب الأحداث في التاريخ الأموي ، فلا يعرف لها سبب مقنع ولا هدف واضح ، وقد ظن بعض الباحثين أن هذه الثورة كانت رد فعل لاستشهاد الحسين بن علي ومحاولة للثأر له [٣٤] .

ولكن هذا غير صحيح على الإطلاق ، والدليل على ذلك أن زعماء البيت الهاشمي ، مثل عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية ، وعلي بن الحسين ، لم يشتركوا فيها ولم يكونوا راضين عنها ، كما رفضها بشدة كبار الصحابة الموجودين في المدينة يومئذ ، مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب [٣٥] .

وقصة هذه الثورة بدأت حين عزل الخليفة يزيد ابن عمه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عن ولاية المدينة بناء على رغبة أهلها وولي مكانة عثمان بن محمد بن أبي سفيان [٣٦] ، فبدأ الوالي الجديد عهده بالإحسان إلى أهل المدينة ، وإمعاناً في تكريمهم أرسل منهم وفداً إلى دمشق لمقابلة الخليفة ، بزعامة عبد الله بن حنظلة الأنصاري ، ومعه أبناؤه الثمانية ، وكثيرون من أشراف المدينة ، فاستقبلهم يزيد استقبالاً حسناً وأكرم وفادتهم عملاً بنصيحة أبيه ، وأعطى عبد الله بن حنظلة مائة ألف درهم وأعطى كل واحد من أبنائه الثمانية عشرة آلاف درهم [٣٧] .

فما أن عادوا إلى المدينة حتى أعلنوا الثورة على يزيد وخلعوا طاعته بدون سبب ، وهذا أمر عظيم وعصيان لا مبرر له ، وأخذ الناس في المدينة يسألون عبد الله بن حنظلة الذي تزعم الثورة عن سبب ثورته مع أن الخليفة أكرمه وأعطاه أموالاً كثيرة ، فقال نعم وما أخذت منه الأموال إلا لأتقوى بها عليه ، موقف غريب حقاً ، ولم يثن ابن حنظلة عن ثورته موقف بني هاشم وكبار الصحابة الذين عارضوه وبصروه بعواقب هذه الثورة التي ستكون وخيمة ، ولكن لم يرتدع ومضى في ثورته ، ولما علم بذلك أرسل النعمان بن بشير الأنصاري الى المدينة لينصح أهله بالعدول عن الثورة وتعكير صفو الأمة ولقد حاول النعمان معهم بشتى الطرق ولكنهم لم يستجيبوا [٣٨] . بل عمدوا إلى والي

المدينة وسائربني أمية وطردهم من المدينة . وهنا أصبح الموقف خطيراً ، ولم يكن في وسع الخليفة أن يسكت على هذا وإلا اعتبر مقصراً في أداء عمله والنهوض بمسئوليته في الحفاظ على الأمن والنظام ، فأعد جيشاً كبيراً بقيادة مسلم بن عقبة المري ، وقال له : « ادع القوم ثلاثاً فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم » (٣٩) ، وفعل القائد ما أمره به الخليفة ودعاهم ثلاثة إلى العودة إلى النظام وترك الثورة ولكنهم رفضوا ، فدارت المعركة التي سميت معركة الحرة في أواخر ذي الحجة سنة ٦٣هـ . وكانت نتيجة المعركة مفزعة ، فقد هزم أهل المدينة شر هزيمة ، وقتل زعيم الثورة عبد الله بن حنظلة ، وقتل كثيرون من أشرافها ، وكان هذا شيئًا متوقعاً ، إذ ليس في وسع أهل المدينة الوقوف في وجه الدولة بجيوشها وأسلحتها وأمكانياتها ، ولم يكن لهذه الثورة من نتيجة سوى إراقة الدماء التي ذهبت هباء .

وإذا كان لنا أن نحدد المسؤول عن هذه الثورة فإننا نقول بكل إنصاف أن المسؤولية تقع على أهل المدينة وليس على الخليفة يقول الشيخ محمد الخضري : « وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب ، والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة ، في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش مالا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ، ولا يدري ما الذي كانوا يريدونه من خلع يزيد ، أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية ، لهم خليفة منهم يلي أمرهم ، أم حمل بقية الأمة على الدخول في أمرهم ، وكيف يكون هذا ، وهم منقطعون عن بقية الأمصار ، ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية ، أنهم فتقوا فتقاً ، وارتكبوا إجراماً فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة (٤٠) .

وفي ظني أنه لم يكن وراء هذه الثورة من دافع سوى كره أهل المدينة للحكم الأموي ، ولكن هل مجرد الكره لأي حكومة يكفي ليكون سبباً للثورة عليها ؟ فلو أن كل كاره لحكومة ثار عليها لما بقيت حكومة ولا دولة ، وهل هناك حكومة إسلامية ـ بعد حكومة الرسول وأبي بكر وعمر ـ كانت موضع رضا جميع الناس .

وإذا كنا نلقي بتبعة ماحدث على أهل المدينة ، ونرى أن الخليفة استخدم حقه في قمع الثورة ، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول أنه كان يكفي القضاء على الثورة وعلي مقاومتها المسلحة فهذاحق مشروع للدولة ـ أما إباحة مدينة الرسول لجند الشام وهتك حرمتها فهذا عمل لا يقره مسلم ، ويتحمل مسئوليته الخليفة وقائده مسلم بن عقبة .

* * *

٣ ـ معاوية بن يزيد بن معاوية (٦٤هـ)

هو معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وأمه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة (٤١) . وكان يلقب بأبي عبد الرحمن وأبي يزيد ، وكان شاباً ورعاً تقياً ، عهد إليه أبوه بالخلافة ، فبويع له بها يوم وفاته في الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٤هـ (٤٢) ، ومع أنه أصبح الخليفة الثالث في سلسلة خلفاء بني أمية من الناحية الشكلية ، إلا أنه لم يباشر عمله كخليفة قط . فقد كان ضعيفاً عن النهوض بتبعات المنصب ، والحق أنه كان صادقاً مع نفسه ومع الناس ، فأعلن ذلك صراحة ، في خطبته الأولى والأخيرة بعد دفن أبيه ، حيث قال : « ... أما بعد فإني ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم » (٤٣) ، لم تطل الحياة بمعاوية بن يزيد بعد هذه الخطبة ، فقيل إنه مات بعد أربعين يوماً وقيل بعد أربعة أشهر ، وفي خلال هذه الفترة القصيرة كان الضحاك بن قيس الفهري هو الذي يصرف الأمور في دمشق عاصمة الخلافة ويصلي بالناس ، واعتبر موقف معاوية بن يزيد من الخلافة دليلاً علي عدم رضاه عن تحويل الخلافة من الشورى إلى الوراثة ، خصوصاً وأنه رفض أن يعهد لأحد من أهل بيته بالخلافة ، حتى لأخيه خالد بن يزيد ، فقد قال لأهله عندما طلبوا منه ذلك: « والله ما ذقت حلاوة خلافتكم ، فكيف اتقلد وزرها ، وتتعجلون أنتم حلاوتها ، وأتعجل مرارتها ، اللهم إني بريء منها متخل عنها (٤٤) .

ولكن المهم أن معاوية بن يزيد وضع الأسرة الأموية في موقف صعب ، بل ترك الدولة على حافة الهاوية ، وسيبذل الأمويون جهوداً

جبارة حتى يستعيدوا سلطانهم وإعادة بناء دولتهم عبر بحور من الدماء وتلال من أشلال الرجال .

* * *

٤ ـ مروان بن الحكم (٦٤ ـ ٦٥ هـ)

رابع الخلفاء الأمويين ، ومؤسس الفرع المرواني ، هو مروان بن الحكم بن ابي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، القرشي الأموي أبو عبد الملك ، وهو صحابي عند طائفة كبيرة من العلماء ، لأنه ولد بعد مولد عبد الله بن الزبير بأربعة أشهر ، وعلى هذا يكون مروان قد بلغ العاشرة تقريباً عند وفاة الرسول - . - ولذلك عده البعض من الصحابة ، وإن كان ابن سعد في الطبقات يعده في الطبقة الأولى من التابعين ، ولكن الأصح أنه من الصحابة (٤٥) . وقد روى حديثاً عن النبي ﷺ في صلح الحديبية . والحديث موجود في صحيح البخاري (٤٦) . كما روى عن طائفة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وروى عنه طائفة من التابعين ، منهم ابنه عبد الملك ، وسعيد بن المسيب وسهل بن سعد ، وعروة بن الزبير ، وعلي بن الحسين - زين العابدين - ومجاهد وغيرهم (٤٧) .

وقد كان مروان من سادات قريش وفضلائها ، روى ابن كثير عن الشافعي أنه قال : « كان علي يوم الجمل حين انهزم الناس يكثر السؤال عن مروان ، فقيل له في ذلك : فقال : إنه يعطفني عليه رحم ماسة ، وهو سيد من شباب قريش » (٤٨) ، ويقول عنه أبو بكر بن العربي : « ومروان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين ، وفقهاء المسلمين ... وأما فقهاء الأمصار فكلهم على تعظيمه ، واعتبار خلافته والتلفت إلى فتواه ، والانقياد إلى روايته » (٤٩) ، ويعتبره ابن تيمية من أقران عبد الله ابن الزبير (٥٠) . ويقول عنه الذهبي : « وكان ذا شهامة وشجاعة ومكر ودهاء » (٥١) .

كان مروان كاتب ابن عمه الخليفة عثمان بن عفان ، وصاحب سره ، وكان الناقمون على عثمان يحملونه مسئولية ما زعموا أنها أخطاء وقع فيها عثمان . ولمّا حاصرالثوار عثمان قاتل مروان يوم الدار ، ثم انضم إلى عائشة وطلحة والزبير ، وحارب معهم يوم الجمل وجرح فيها ، ومع ذلك سأل عنه علي بعد المعركة ـ كما مر بنا ـ وبايع علياً وعاد إلى المدينة ، ولم يحضر صفين مع معاوية ، ومع ذلك فقد ولاه معاوية المدينة أكثر من مرة ، ثقة في حكمته وتجربته ، والأخبار التي ترويها المصادر عن مروان أثناء ولايته على المدينة تدل على أنه كان يتحرى العدل ، ويستشير صلحاء الناس في الأمر ، ومما يدل على تحريه العدل أنه جمع صيعان المدينة وأخذ بأعدلها فنسب إليه ، فقيل صاع مروان [٥٢] . وروى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال : « كان عند مروان قضاء ، وكان يتتبع قضايا عمر بن الخطاب » [٥٣] .

مروان والخلافة :

مر بك أن معاوية بن يزيد عجز عن القيام بأعباء الخلافة ، ورفض أن يعهد بها لأحد من أهل بيته ، وترك الأمر شورى بين المسلمين يولون من يحبون ، فاضطرب أمر بني أمية اضطراباً شديداً ، وكادت دولتهم تضيع ، وانتهز عبد الله بن الزبير هذه الفرصة ، فأعلن تنصيب نفسه خليفة في مكة ، وبدأت الأقاليم تبايعه ، فباعيته العراق ومصر ، بل الشام نفسها التي تعتبر معقل الأمويين ، جاءته بيعة معظم أقاليمها ، وبدا كما لو أن دولة بني أمية قد ولت الأدبار.

وفي هذه الأثناء كان مروان رجل بني أمية في المدينة المنورة ، فأخرجهم منها عبد الله بن الزبير ، فرحلوا إلى الشام ليجدوا الأمور في غاية الاضطراب ، والانقسامات على أشدها ، الأمر الذي جعل مروان

يفكر في العودة إلى الحجاز ومبايعة عبد الله بن الزبير [٥٤] .

مؤتمر الجابية ومبايعة مروان بالخلافة :

بينما مروان يدير فكرة مبايعته لابن الزبير في رأسه ، وصل إلى الشام عدد من رجالات بني أمية البارزين ، أمثال عبيد الله بن زياد ، والحصين بن نمير ، فبدأ الموقف يتغير لأن هذين وأمثالهما يعتبرون ضياع الدولة الأموية ضياعاً لمستقبلهم كله ، بل ربما يفقدون حياتهم ، لذلك عملوا على منع مروان من الذهاب إلى مكة ومبايعة ابن الزبير ، وأخذوا يستثيرون عزيمة مروان ، فقد قال له عبيد الله بن زياد : « لقد استحييت لك من ذلك . أنت كبير قريش وسيدها ، تمضي إلى ابي خبيب - يقصد عبد الله بن الزبير - فتبايعه ، فقال مروان : ما فات شيء بعد » [٥٥] .

انتعشت آمال مروان في الخلافة ، ولكن الأمر لم يكن سهلاً ، بل تكتنفه صعوبات كثيرة ، فمعظم الأقاليم الإسلامية قد بايعت عبد الله بن الزبير ، كما أن أنصار بني أمية في الشام كانوا منقسمين إلى فريقين فريق يميل إلى بيعة خالد بن يزيد بن معاوية ، وعلى رأسه حسان بن مالك الكلبي ، ومالك بن هبيرة السكوني ، والفريق الآخر يميل إلى بيعة مروان ، ويتزعمه عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير وروح بن زنباع الجذامي ، وتغلب الفريق المناصر لمروان على أساس أن خالد بن يزيد لا يزال طفلاً ، وأن مروان رجل مسن مجرب ، وهو الذي يستطيع أن يقف نداً لعبد الله بن الزبير ، وخالد ستكون أمامه فرصة لأنه صغير السن ، وبدأت الأمور تسير لمصلحة مروان ، ودعى لعقد مؤتمر في الجابية بالقرب من دمشق لحل النزاع واتفق المؤتمرون على حل يرضى الجميع ، وهو أن تكون البيعة بالخلافة لمروان ، ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم من بعد خالد لعمرو بن سعيد الأشدق ، وكان ذلك في مستهل

ذي القعدة سنة ٦٤هـ .

موقعة مرج راهط :

حل مؤتمر الجابية مشكلة الخلافة بين بني أمية ، وكانت هذه خطوة موفقة وحاسمة ولكن كان علي مروان أن يثبت أنه كفؤ لهذا المنصب الخطير ، وكانت أولى الخطوات إلى تأكيد ذلك الانتصار على أنصار ابن الزبير في الشام ، وهم القيسيون بزعامة الضحاك بن قيس وزفر بن الحارث والنعمان بن بشير الأنصاري ، الذين ذهبوا إلى مرج راهط بالقرب من دمشق ـ وكان ذهابهم إلى هناك يدل على أنهم قرروا أن يخوضوا الحرب ضد مروان وبني أمية ، ولم يضيع مروان وقتاً ، فقد عبأ أنصاره من قبائل اليمن في الشام ، كلب وغسان والسكاسك والسكون ، وجعل على ميمنته ، عمرو بن سعيد وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد ، واتجه الى مرج راهط حيث دارت المعركة الشهيرة ، والتي حسمت الموقف في الشام لصالح بني أمية ، حيث هزم القيسيون أنصار عبد الله ابن الزبير ، وقتل زعيمهم الضحاك بن قيس ، وعدد كبير من زعماء قيس في الشام ، وكانت المعركة في نهاية سنة ٦٤هـ ، وقيل في المحرم سنة ٦٥هـ [٥٦] .

مروان يستولي على مصر :

كان انتصار مروان على أنصار ابن الزبير في مرج راهط بداية حسنة له ولأسرته ، فقد بدأ الأمويون يستعيدون نفوذهم في الشام ، والتي ستكون منطلقاً لمروان وابنه عبد الملك من بعده في إعادة تأسيس الدولة الأموية ، كما كانت من قبل منطلقاً لمعاوية في انشائها ، وكان مروان حصيفاً حيث وجه أنظاره بعد توطيد نفوذه في الشام إلى مصر .

فلمصر أهمية كبرى من جميع النواحي العسكرية والاقتصادية والبشرية واستيلاؤه عليها يدعم موقفه في مواجهة خصمه الخطير عبد الله بن الزبير ، وفي الواقع كانت مهمة مروان في الاستيلاء على مصر سهلة نسبياً ، لأن هوى المصريين كان مع بني أمية ، صحيح بايع كثير من المصريين لعبد الله بن الزبير ، ولكنها لم تكن بيعة خالصة وإنما كانت بيعة ضرورة ، لأنه لم يكن أمامهم غيره ، يقول الكندي (٥٧) :

« لما قدم عبد الرحمن بن جحدم - والياً على مصر من قبل عبد الله ابن الزبير ، ومعه الخوارج - الذين لا يجمعهم مع ابن الزبير إلا العداء لبني أمية - بايعه الناس على غل ، ثم دعا شيعة بني أمية مروان سراً » ، وهذا ما يفسر سهولة استيلاء مروان على مصر ، بعد عدة معارك مع ابن جحدم ، كان النصر فيها في جانب مروان ، وهرب ابن جحدم من أمام مروان ، ثم لم يلبث أن جاءه طالباً منه العفو والسماح له بالخروج إلى مكة ، فعفا عنه مروان .

كان استيلاء مروان على مصر في جمادي الآخرة سنة ٦٥هـ . فأقام فيها شهرين ، رتب فيها أوضاعها ، ولما اطمأن على سير الأمور ، وأزمع العودة إلى الشام عين ابنه عبد العزيز واليا عليها ، وأوصاه وصية تدل على حنكة سياسية وخبرة واسعة (٥٨) .

وعاد إلى الشام ليستأنف كفاحه ضد ابن الزبير ، ولكن الموت عاجله ، فتوفي في رمضان سنة ٦٥هـ . تاركاً المهمة لابنه عبد الملك .

* * *

٥ ـ عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ)

هـو عبد الملك بـن مروان بـن الحكم بن أبـي العاص بن أميـة ، وأمه عائشة بنت المغيرة بن أبي العاص بن أمية ، ولد في المدينة سنة ٢٦هـ (٥٩) ، في خلافة عثمان بن عفان ، ونشأ بها نشأة علمية ، وتتلمذ على كبار الصحابة ، وروى عنهم الحديث ، مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة ، كما روى عن معاوية بن أبي سفيان وعن أبيه مروان ، وكان يكثر من مجالسة العلماء ، وروي عنه جماعة من التابعين ، منهم خالد بن معدان ، وعـروة بن الزبير ، والزهري ، ورجاء بن حيوة ، وجرير بن عثمان (٦٠) . وكان من فقهاء المدينة المعدودين ، وكان يلقب بحمامة المسجـد ، لملازمته مسجـد الرسول ﷺ ، والأخبار متواترة على فقه عبد الملك وغزارة علمه ورجاحة عقله ، قال عنه الذهبي :«ذكرته لغزارة علمه» (٦١) وقـال الشعبي : « ما جالست أحداً إلا رأيت لي الفضل عليه ، إلا عبد الملك بن مروان » (٦٢) .

وقد احتج الإمام مالك بقضاء عبد الملك بن مروان (٦٣) ، ويقول ابن خلدون : « وعبد الملك ، صاحب ابن الزبير ، أعظم الناس عدالة ، وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفقهه ، وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبير ، وهما معه بالحجاز » (٦٤) .

قضى عبد الملك بن مروان معظم حياته قبل أن يلي الخلافة في المدينة المنورة ينهل من علمائها وفقهائها ، ويتأدب بآدابهم ، ولم يكن يغادرها إلا للحج أو الغزو ، فقد اشترك في غزو شمال إفريقيا في عهد معاوية بن أبي سفيان .

وظل في المدينة مع أهله من بني أمية حتى طردهم منها عبد الله بن الزبير ، فرحلوا إلى الشام بعد موت يزيد بن معاوية ، واضطراب الأمر على بني أمية ، لكن بوصولهم إلى الشام بدأت الأمور تتحسن لمصلحتهم ، فجمعوا كلمتهم وعقدوا مؤتمر الجامية في نهاية ذي القعدة سنة ٦٤هـ ذلك المؤتمر الذي بويع فيه أبـوه مـروان بن الحكم بالخلافـة ، ـ كما مر بنا قبل قليل ـ وبعد انتصار أبيه على أنصار عبد الله بن الزبير في معركة مرج راهط ، وتمكنه من بسط نفوذه على الشام ، توجه إلى مصر وترك ابنه عبد الملك نائباً عنه في دمشق ، ولما عاد مروان من مصر في رجب سنة ٦٥هـ لم يلبث أن توفى في رمضان من السنة نفسها ، فبويع لعبد الملك في اليوم الذي مات فيه أبوه .

عبد الملك وإعادة الوحدة للدولة الإسلامية :

تجمع المصادر التي ترجمت لعبد الملك وأرّخت له ، على أنه كان من عقلاء الرجال وأفذاذهم ، ومن أكثرهم دهاء وحزماً وشجاعة وإقداماً [٦٥] ، ولقد برهن عبد الملك على كفاءته العالية ، سواء في إعادة توحيد الدولة الإسلامية ، أو في الإدارة والسياسة ، وكان غير هياب يمضي إلى هدفه بعزيمة ثابتة ، ولا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلاً ، وكان يقود المعارك ضد خصومه بنفسه ، وقد استطاع بعد جهود جبارة أن يعيد الوحدة إلى الأمة الإسلامية ، وأن يجمع كلمتها تحت راية واحدة بعد أن مزقتها الفتن والخصومات .

فعندما تولى عبد الملك الخلافة كانت الدولة الإسلامية مقسمة على النحو التالي : دولة عبد الملك بن مروان نفسه ، وتتكون بشكل رئيسي من الشام ومصر ، ودولة عبد الله بن الزبير وتتكون من الحجاز والعراق وما يتبعه من بلاد فارس ، وكان يحكم من مكة ، ودولة

الخوارج الأزارقة في الأهواز ، ودولة الخوارج النجدات في اليمامة ، والتي امتد نفوذها إلى اليمن وحضرموت والطائف ، فضلاً عن الشيعة الذين كادت تقوم لهم دولة بالعراق ، بزعامة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وكانت صورة هذا الانقسام الخطير في صفوف الأمة الإسلامية ، تتجلى بارزة في موسم الحج ، ففي سنة ٦٨هـ ارتفعت في موسم الحج أربعة ألوية ، لواء عبد الملك بن مروان ، ولواء محمد بن علي بن أبي طالب - ابن الحنفية - لواء عبد الله بن الزبير ، ثم لواء الخوارج النجدات ، وكان هذا وضعاً شاذاً وغريباً ، وقد رأى عبد الملك أنه المسئول عن تصحيح هذه الأوضاع والقضاء على هذه الانقسامات ، وإعادة الوحدة إلى الدولة الإسلامية ، لأنه كان يعتبر نفسه هو الخليفة الشرعي للأمة الإسلامية ، وهؤلاء جميعاً خوارج عليه ، وقد برهن عبد الملك عن فهم عميق لطبيعة هذه الصراعات ، وأن هذه القوى جميعاً لا رابط يجمعها سوى العداء لبني أمية ، ولذلك قرر أن يتخلص من منافسيه الواحد بعد الآخر ، ولقد ساعدته الظروف حيث بدأت هذه القوى يأكل بعضها بعضاً ، فدخل عبد الله بن الزبير في صراع مع المختار في العراق ، ووقف عبد الملك من أمر هذا الصراع موقف المتفرج ، حتى إذا استطاع مصعب بن الزبير القضاء على المختار في العراق سنة ٦٧هـ . بدأ عبد الملك يعد عدته للمسير إلى العراق لا نتزاعه من آل الزبير ، ونجح في القضاء على مصعب بن الزبير سنة ٧٢هـ . ثم أرسل قائده الحجاج بن يوسف الثقفي للقضاء على عبد الله بن الزبير في مكة ، ونجح الحجاج في تحقيق الهدف سنة ٧٣هـ ، وبهذا تخلص عبد الملك من خصومه وأعاد الوحدة للأمة الإسلامية ، واعتبره المؤرخون المؤسس الثاني للدولة الأموية ، واعتبروا عام ٧٣هـ عام الجماعة الثاني .

عبد الملك وإدارة الدولة :

كما أظهر عبد الملك مهارة ومقدرة فائقة في القضاء على خصومه ، فقد أظهر براعة في إدارة الدولة وتنظيمها ، وكان في أسلوبه ومنهجه شبيهاً بمعاوية بن أبي سفيان في كثير من الوجوه ، فكما اعتمد معاوية في سياسته على ركائز ثابته فكذلك كان عبد الملك بن مروان ، حيث استعان بنخبة من أمهر رجال عصره في الإدارة والسياسة ، مثل الحجاج بن يوسف الثقفي ، الذي اعتمد عليه في إدارة العراق - وهو أخطر أجزاء الدولة يومئذ - والقسم الشرقي من العالم الإسلامي وأطلق يده في كل ذلك ، فنهض الحجاج بمهمته ، وكان عند حسن ظن عبد الملك به وثقته فيه ، فاخلص كل الإخلاص للدولة ، وبذل أقصى طاقاته في تثبيت أركانها كما اعتمد عبد الملك على رجال بيته وأخوته ؛ عبد العزيز ومحمد وبشر وغيرهم . كذلك اقتدى عبد الملك بمعاوية في تفقد أحوال دولته وتصفح أمورها ، وكان دائم المراقبة للعمال والولاة ، حريصاً على نزاهتهم واستقامة أخلاقهم ، وبعدهم عن الشبهات ، ولم يكن يسمح لأحد أن يداهنه أو ينافقه أو يضيع وقته فيما لا يفيد [٦٦] . ولم يكن أحد من ولاته وعماله فوق الحساب مهما كانت مكانته إذا أخطأ أو قصر تقصيرا يخل بسير الأمور سيرا حسنا .

شكا إليه أنس بن مالك - خادم رسول الله ﷺ - من الحجاج ، فلما وصله كتاب أنس يقول محمد بن الزبير : « أخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكي ، وبلغ به الغضب ما شاء الله ، ثم كتب إلى الحجاج بكتاب غليظ ، فجاء إلى الحجاج ، فقرأه فتغير ، ثم قال لحامل الكتاب انطلق بنا إليه نترضاه » [٦٧] . وقد كان لعبد الملك فضل كبير في تعريب دواوين الدولة الأسلامية وعملتها وتنظيم البريد ، حتى

جعله جهازا فعالاً ، ففضلاً عن أهميته في سرعة إيصال المراسلات بين الخليفة وعماله وولاته وقادته على الأقاليم فقد جعل عبد الملك من رجال البريد عيونه في الأقاليم الذين يمدونه بكل الأخبار عن العمال والولاة وعن سيرهم ومعاملاتهم للناس حتي يطمئن على أن كل شيء يسير سيراً حسنا ، ولقد بادر عبد الملك بعزل أحد العمال من منصبه عندما أخبره رجال البريد أن هذا العامل قبل هدية ، فاعتبر عبد الملك ذلك خطأ كبيراً استوجب عنده عزل ذلك العامل [٦٨] ، لأن الهدية للموظف العام تعتبر رشوة .

وخلاصة القول فقد كرس عبد الملك كل وقته وجهده لتوطيد أركان دولته وتنظيمها والسهر على أمنها ورعاية مصالحها ، ونجح في ذلك نجاحاً باهراً ، وخلف وراءه دولة قوية غنية مرهوبة الجانب .

سياسة عبد الملك الخارجية :

كما تجلت شخصية عبد الملك بن مروان وعبقريته في السياسة الداخلية ، من البراعة في القضاء على الخصوم الساسيين الي تنظيم الدولة وإدارتها وتطوير أجهزتها ودواوينها ، فقد تجلت عبقريته أيضاً في السياسة الخارجية تجاه الدولة البيزنطية التي كانت العدو الرئيسي للدولة الإسلامية ، ولما كان عبد الملك في مستهل خلافته مشغولاً بالقضاء على خصومه السياسيين في الداخل ، فقد قرر مهادنة الدولة البيزنطية ، وتأجيل الصدام معها حتي يفرغ من مشاكله الداخلية ، ولذلك وقع مع جستنيان الثاني - إمبراطور الدولة البيزنطية- معاهدة صلح ليضمن عدم إغارته على الحدود الإسلامية أثناء انشغال عبد الملك بحرب ابن الزبير ، ولكن ما أن تخلص عبد الملك من مشاكله الداخلية ، وقضى على ابن الزبير حتى تجددت المشاكل بينه وبين إمبراطور بيزنطة ووجدها عبد

الملك فرصة ليضغط على هذا العدو التقليدي ، وأخذت غزوات الصوائف والشواتي تنتظم من جديد ، حتى اضطر البيزنطيون أن يقفوا موقف الدفاع عن حدودهم من جديد ، واستمرت هذه السياسة حتى وصلت قمتها في عهد ولديه الوليد وسليمان ، ـكما سيأتي ـ وتمشياً مع هذه السياسة فقد أولى عبد الملك جبهة شمال إفريقيا عناية كبيرة ، لأنه أدرك أن البيزنطيين قد استغلوا بعد هذه الجبهة عن مركز الدولة الإسلامية ، فاوقعوا بالمسلمين عدة هزائم ، مماجعل عبد الملك يرسل إلى هذه الجبهة جيشاً من الشام على رأسه حسان بن النعمان الغساني الذي استطاع القضاء على النفوذ البيزنطي في الشمال الإفريقي كله قضاءً تاماً .

وفي الشرق ـ في الجنوب حيث إقليم السند ، وفي الشمال حيث إقليم ما وراء النهر ـ فما أن فرغ عبد الملك من مشاغله الداخلية حتى بدأت الغزوات تنطلق إلى هذه الجبهات ، تمهيداً للإنطلاقة الكبرى من الفتوحات ، التي ستبدأ في عهد ابنه وخليفته الوليد ، مما سنعاود الحديث عنه عندما نتحدث عن الفتوحات الأموية .

والخلاصة أن عبد الملك بن مروان كان رجلاً فذاً وعبقرياً عظيماً ، وحد الدولة الإسلامية ، وأبعد عنها شبح الانقسامات ووطد أركانها ، وأبعد عنها خطر أعدائها وتركها لأبنائه قوية البنيان ، مرهوبة من أعدائها .

توفي عبد الملك بن مروان في منتصف شوال سنة ٨٦هـ وصلى عليه ابنه الوليد بن عبد الملك ، ثم بويع له بالخلافة في اليوم نفسه .

* * *

٦ ـ الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ)

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمه ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث العبسي ، ولد حوالي سنة ٥٠هـ[٦٩] ، وهو أكبر أولاد أبيه ، وكان عبد الملك حريصاً على تربية أولاده تربية عربية إسلامية ، كما كان يحثهم على مكارم الأخلاق ، وقد أولى ابنه الوليد عناية خاصة ، لأنه ولي عهده ، وقد شب الوليد على الصلاح والتقوى ، وحب القرآن الكريم والإكثار من تلاوته ، وكان يحث الناس على تلاوة القرآن ، ويجيزهم على ذلك .

قال إبراهيم بن أبي عيلة : « قال لي الوليد بن عبد الملك يوماً في كم تختم القرآن ؟ قلت في كذا وكذا . فقال : أمير المؤمنين على شغله يختمه في كل ثلاث ـ وقيل في كل سبع ـ قال : وكان يقرأ في شهر رمضان سبع عشرة ختمة ، رحم الله الوليد وأين مثله ؟ بني مسجد دمشق ، وكان يعطيني قطع الفضة ، فأقسمها على فقراء بيت المقدس » [٧٠] .

لقد كان الوليد بن عبد الملك من الرجال المحظوظين في التاريخ ، وكان عهده غرة في جبين الدولة الأموية ، والحقيقة أن الوليد جنى ثمار غرس أبيه ، الذي ترك دولة مستقرة قوية آمنة مطمئنة ، وقد استثمر الوليد جهود أبيه أعظم استثمار ، وكان عهده عهد فتوحات كبرى وبناء وتعمير ، فقد شهد ذلك العهد المبارك فتوحات رائعة في الشرق والغرب ، وبرز فيه عدد من القادة العظام ؛ الذين اتصفوا بالبطولة والجسارة والتضحية والإقدام ، و رفعوا راية الإسلام عالية خفاقة ، ففي المشرق وقف الحجاج بن يوسف الثقفي كالأسد الجسور ، ناشراً أحد جناحيه إلى الجنوب الشرقي ـ إلى إقليم السند ـ حيث أرسل ابن عمه

محمد بن القاسم الثقفي ، الذي فتح ذلك الإقليم الكبير ورفع فوقه راية الإسلام وهو دون العشرين ، والجناح الآخر إلى الشمال الشرقي إلى أقاليم ما وراء النهر ، حيث أرسل القائد البطل قتيبه بن مسلم الباهلي ، الذي فتح هذه الأقاليم الشاسعة وأدخلها تحت راية الإسلام .

أما في المغرب فقد تألق قائدان آخران عظيمان ، هما موسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، اللذان استكملا فتح الشمال الإفريقي كله ونشرا فيه الإسلام ، ثم فتحا فتحاً آخر عظيماً ، حيث أدخلا الأندلس - شبه جزيرة إيبريا- تحت راية الإسلام . كما اضطلع أخوه مسلمة بن عبد الملك ، وابنه العباس بن الوليد بمنازلة الدولة البيزنطية ومواصلة الضغط عليها والاستيلاء على الكثير من حصونها وقلاعها في مناطق الحدود ، كما بدأ الوليد في الاستعداد لمحاصرة القسطنطينية - عاصمة الدولة البيزنطية والاستيلاء عليها - وهو الأمر الذي سيتم في عهد أخيه سليمان . وباختصار فقد امتدت حدود الإسلام في عهد الوليد من الأندلس غرباً حتى الصين شرقاً ومن آسيا الوسطى شمالاً حتى المحيط الهندي جنوباً ، وهذا انجاز هائل وعظيم .

كما شهد عهد الوليد نهضة عمرانية كبرى ، وكان هو محباً للبناء والتعمير حتى أن الناس كانوا عندما يلتقون في عهده ، يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع (٧١) . ولقد أعاد الوليد بناء مسجد رسول الله ﷺ ووسعه توسعة كبيرة ، واحتفل بذلك احتفالاً عظيماً ، ولم يبخل عليه بالأموال ليكون في أبهى صوره ، وعهد بمهمة الإشراف على المباني لابن عمه عمر بن عبد العزيز ، وبعث إليه بالأموال وأدوات الزينة مثل الرخام والفسيفساء ، وأرسل إليه ثمانين صانعاً من الروم والقبط ، من أهل الشام ومصر (٧٢) .

أما مسجد دمشق - الذي لا يزال موجوداً حتى الآن ، ويعرف بالمسجد الأموي - فقد جعله الوليد آية من آيات العمارة الإسلامية ، وبالغ في تجميله وابهته ليكون مظهراً من مظاهر عظمة الإسلام ، وانفق في سبيل ذلك أموالاً طائلة وكما كان الوليد مهتما ببناء المساجد ، فقد اعتنى بتعبيد الطرق ، وبخاصة تلك التي تؤدي إلى الحجاز ، لتيسير السفر على حجاج بيت الله الحرام (٧٣) .

والخلاصة أن عهد الوليد كان عهد الرخاء الواسع والازدهار العظيم ، نعم الناس فيه بالهدوء والاستقرار ، والبناء والعمران ، وسبق الوليد كل دول العالم في رعاية المرضى وأصحاب العاهات وعلاجهم على حساب الدولة ، واسمع ما يقوله الطبري عن الوليد : « كان الوليد عند أهل الشام أفضل خلائفهم ، بنى المساجد ؛ مسجد دمشق ، و مسجد المدينة ، ووضع المنابر ، وأعطى الناس ، وأعطى المجذومين ، وقال لا تسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادماً ، وكل ضرير قائداً ، وفتح في ولايته فتوح عظام » (٧٤) . وبعد هذا الجهد الكبير الذي بذله الوليد في الفتوحات والبناء والتعمير ، والسهر على راحة الناس ، صعدت روحه إلى بارئها في منتصف جمادي الآخرة سنة ٩٦هـ ، فخلفه أخوه سليمان .

* * *

٧ ـ سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ)

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمه ولادة بنت العباس العبسية ، فهو شقيق الوليد ، وقد ولد بالمدينة المنورة [٧٥] ، ونشأ بالشام ، وكان يحب البادية والإقامة فيها ، وكان من أفضل أولاد عبد الملك ، وقد بويع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أخوه الوليد ، في منتصف جمادي الآخرة سنة ٩٦هـ . وكان سليمان ـ كما يقول الذهبي : « من أمثل الخلفاء ، نشر علم الجهاد ، وكان ديناً فصيحاً مفوهاً ، عادلاً محباً للغزو » [٧٦] .

وكان سليمان قبل أن يلي الخلافة من أكبر أعوان أخيه الوليد ، وكان له كالوزير والمشير ، كما يقول ابن كثير [٧٧] . وكان والياً على فلسطين وكان فيها عند وفاة أخيه الوليد ، فأخذ له البيعة في دمشق ابن عمه ؛ عمر بن عبد العزيز ، الذي أصبح من أكبر أعوانه وناصحيه ، وكان لا يصدر عن أمر إلا برأيه ، فقد قال له عقب توليه الخلافة : « يا أبا حفص ، إنا قد ولينا ما ترى ، وليس لنا علم بتدبيره ، فما رأيت من مصلحة العامة فأمر به ، فليكتب ، وكان من ذلك عزل نواب الحجاج من أمور حسنة ، كان يسمعها من عمر بن عبد العزيز » [٧٨] ، وقد كان حرص سليمان على الاستعانة بصلحاء الرجال ، من أمثال عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة برهانا على صلاحه وتقواه وحبه للعدل ، فلا أحد ينكر أثر البطانة والأعوان على الحاكم ، وانعكاس ذلك على سلوكه وقراراته ، فإن كانت البطانة صالحة تعين الحاكم على فعل الخير وتذكره إذا نسي ، وإذا ذكر أعانته ، وكان عمر بن عبد العزيز لا يكف عن تذكير سليمان بمسؤلياته تجاه الأمة ، فقد حج معه سنة ٩٧هـ فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر : « ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصي عددهم إلا الله ،

ولا يسع رزقهم غيره ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء رعيتك اليوم ، وهم غداً خصماؤك عند الله ، فبكى سليمان بكاء شديداً ، ثم قال : بالله أستعين » (٧٩) ، وقد ظهر تأثير هؤلاء الرجال الصالحين على سليمان ، حيث كان يستشيرهم في أهم الأمور ، وبصفة خاصة في تولية الولاة على الأقاليم ، لأنه كان يحب أن يكونوا من صلحاء الرجال وأكثرهم عدلاً ، فقد قال يوماً لرجاء بن حيوة : أريد رجلاً له فضل في نفسه أوليه إفريقية ، فقال له نعم : فمكث أياماً ، ثم قال : قد وجدت رجلاً له فضل ، قال من هو؟ قال : محمد بن يزيد ، مولي قريش ، فقال : أدخله علي ، فأدخله عليه ، فقال سليمان : يا محمد بن يزيد ! اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله ، قال فودّعه وانصرف ، وهو يقول : مالي عذر عند الله إن لم أعدل » (٨٠) .

ومن هنا ، وبتأثير عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة وأمثالهما ، جاءت فكرة تغيير عمال الحجاج وأسلوبه في الحكم والإدارة ، وهذه ناحية بالغة الأهمية في سياسة سليمان بن عبد الملك ، لأن كثيراً من الناس أساءوا فهمها وصورها على أنها سياسة عاطفية ، لا تقيم وزناً لمصلحة الأمة (٨١) . واتهم سليمان بأنه عزل ولاة الحجاج ، مثل قتيبة بن مسلم ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، ونكل بهم انتقاماً منهم ومن الحجاج ، لا لشيء إلا لأن الحجاج كان قد أيد أخاه الخليفة الوليد عندما أراد أن يعزله من ولاية العهد ، وأن يولي ابنه عبد العزيز بن الوليد مكانه ، وهذه نظرة سطحية للأمور ، وبعيدة عن الواقع في الوقت نفسه ، فالأمر لم يكن أمر عواطف ، أو انتقاماً شخصياً ، وإنما هي سياسة عامة للدولة ، رسمها سليمان بالتشاور مع كبار مستشاريه ، وأي حاكم في مكان سليمان بن عبد الملك كان لابد أن يغير في الرجال والأسلوب

والمناخ الذي أشاعه الحجاج ورجاله من قسوة ، لأن الناس كانوا ينتظرون التغيير ، فما صنعه سليمان كان استجابة لرغبة شعبية عامة ، لأنه إذا كان للحجاج ظروفه ومبرراته في انتهاج الأسلوب القاسي الذي انتهجه فقد انتهت تلك الظروف ، وبدأ الهدوء والسلام يعم الأمة الإسلامية ، منذ خلافة الوليد ابن عبد الملك ، فكان من الحكمة أن يستجيب الخليفة الجديد لتلك الرغبة العامة لدى الأمة ، وكانت خطوات سليمان بن عبد الملك في هذا الاتجاه محل تقدير ورضا الناس .

يقول الطبري : إن الناس قد استبشروا خيراً بخلافة سليمان ، وكانوا يقولون : « سليمان مفتاح الخير ، ذهب عنهم الحجاج ، فولى سليمان ، فأطلق الأسارى ، وخلى أهل السجون ، وأحسن إلى الناس ، واستخلف عمر بن عبد العزيز » (٨٢) . وكانت تلك السياسة الداخلية الرحيمة التي سار عليها سليمان والتي كانت موضع الرضا والقبول عند الناس هي المقدمة للخير والعدل الذي فاض على الناس بعده في عهد خليفته وابن عمه عمر بن عبد العزيز .

ولقد حافظ سليمان على هيبة الدولة في عيون أعدائها في الخارج ، بل لقد أقدم على خطوة جريئة للغاية ، حيث أرسل جيشه ليحاصر القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وليستولي عليها سنة ٩٨ - ٩٩هـ ، واهتم بهذا الأمر اهتماماً كبيراً ، والدليل على ذلك أنه اتخذ من دابق في شمال الشام مركز قيادة أقام فيه ليكون على مقربة من مسرح العمليات الحربية ، وليشد وجوده هناك من أزر الجند ويرفع من روحهم المعنوية ، ويقول الطبري : « إنه أعطى الله عهداً ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى أرض الروم ؛ القسطنطينية » (٨٣) ، وإذا كانت المهمة لم تنجح فإن ذلك لم يكن راجعاً إلى تقصير من سليمان وإنما

لظروف أخرى .

وخلاصة القول أن سليمان بن عبد الملك كان عند الناس مفتاحاً للخير ، وعند العلماء من أفضل الخلفاء وأعدلهم ، يقول ابن كثير : « كان سليمان بن عبد الملك يرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله ، واتباع القرآن والسنة ، وإظهار الشرائع الإسلامية » (٨٤) . وقد توج سليمان أعماله الجليلة بعمل عظيم لو لم يكن له غيره لكفاه ، وهو تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة من بعده ، وهذا من أقوى البراهين على صلاح سليمان وتقواه ، وحرصه على صالح المسلمين ، توفى سليمان بن عبد الملك ، لعشر خلون - وقيل لعشر بقين - من شهر صفر سنة ٩٩هـ ، فبويع لعمر بن عبد العزيز بالخلافة في اليوم نفسه .

* * *

٨ ـ عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ)

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ؛ وأمه أم عاصم ، بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وقد ولد بالمدينة المنورة ٦٢هـ على الأرجح (٨٥) . ونشأ بها بناء على رغبة أبيه الذي تولى إمارة مصر بعد مولده بثلاث سنوات ـ ٦٥ هـ ـ إلا أنه حرص على إبقاء ابنه عمر في المدينة لينشأ بين أخواله من أسرة عمر بن الخطاب ، ولينهل من علم علماء المدينة ويتأدب بآدابهم ، فالمدينة يومئذ موئل الفقه والحديث والورع والتقى والصلاح ، ولا شك أن هذه البيئة الطيبة الصالحة أثرت في عمر وتأثر بها ، وروى الحديث عن كثير من الصحابة والتابعين ، منهم أنس بن مالك ـ خادم رسول الله ﷺ ـ وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، والسائب بن يزيد ، وسهل بن سعد ، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب (٨٦) . وكان عمر فقيها مجتهداً ، وتابعيا جليلاً وهو حجة عند العلماء ، فقد قال الإمام أحمد بن حنبل : « لا أرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز » (٨٧) ، وقد روى عن عمر كثير من التابعين منهم أبو بكر بن حزم ، ورجاء بن حيوة ، والزهري ، وكثيرون غيرهم ، ولفقه عمر واجتهاده وصلاحه كان شيوخه يأخذون العلم عنه ، فقد قال عنه أبو سلمة بن عبد الرحمن ـ وهو من شيوخه ـ « عمر معلم العلماء » .

وروي عن ميمون بن مهران أنه قال : « أتينا عمر بن عبد العزيز ونحن نرى أنه يحتاج إلينا ، فما كنا معه إلا تلامذة » (٨٨) .

ظل عمر يقيم في المدينة المنورة حتى وفاة أبيه سنة ٨٥هـ ، فأخذه عمه عبد الملك بن مروان إلى دمشق ، وخلطه بأولاده وزوجه ابنته

فاطمة !

ثم عينه على إمارة خناصره - وهي إمارة صغيرة في الشام من أعمال حلب - ولعل الخليفة عبد الملك قصد من ذلك أن يعطيه فرصة ليتدرب على الإدارة وفن الحكم ، وظل عمر في ولايته تلك حتى وفاة عمه عبد الملك سنة ٨٦هـ .

عمر بن عبد العزيز والي المدينة :

لما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٨٦هـ ، ظل علي الإحسان إلى ابن عمه عمر ، وعامله كما كان يعامله أبوه ، ثم عينه والياً على المدينة المنورة سنة ٨٧هـ ، وكان تعيين عمر على المدينةدليلاً على رغبة الوليد في الإحسان إلى أهلها ، وإقامة العدل بينهم ، ولا شك أن أهل المدينة سعدوا بولاية عمر الذي يعرفونه حق المعرفة ، لأنه نشأ وتربى بينهم ، وقد ظهرت رغبته في العدل منذ اللحظات الأولى ، فقد جمع عشرة من خيرة أهل المدينة ، وهم من أساتذته وأصدقائه السابقين ، وقال لهم : « إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعواناً على الحق ، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو رأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى ، أو بلغكم من عامل ظلامة ، فأحرج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغني ، فجزوه خيراً وافترقوا » (٨٩) .

وقد ظل عمر واليا على المدينة حوالي ست سنوات ، كان فيها موضع الرضا من أهلها .

عمر بن عبد العزيز والخلافة :

عرفت - فيما سبق - أن سليمان بن عبد الملك توج أعماله الصالحة

بتولية ابن عمه عمر بن عبد العزيز الخلافة ، لما توسمه فيه من الصلاح التقوى والميل إلى العدل . والحق أن عمر لم يكن راغباً في الخلافة [٩٠] . لأنه يعلم أنها حمل ثقيل ، ومسئولية جسيمة ، لكنها جاءت إليه ولم يطلبها أو يسعى عليها .

ولقد كانت الخلافة نقطة تحول هامة في حياة عمر بن عبد العزيز من ناحية ، وذات أثر كبير في تاريخ بني أمية ، بل في التاريخ الإسلامي كله من ناحية ثانية .

أما أثرها في حياة عمر نفسه فقد كانت حداً فاصلاً بين عهدين أو مرحلتين ، مرحلة كان عمر فيها - رغم صلاحه وتقواه - يتقلب في النعيم ، ويحيا حياة مترفة ناعمة ، يأكل أطيب الطعام ، ويلبس أفخر الثياب ، ويتبختر في مشيته حتى عرفت مشيته بالعمرية لتميزها ، وكان إذا مر في شارع تفوح منه رائحة المسك ، كما كان شديد العناية بتمشيط شعره ، وحسن مظهره .

أما المرحلة التي قضاها عمر في الخلافة فقد تميزت بالزهد الصادق ، والبعد عن زخرف الحياة وزينتها ، وصرفه إحساسه العميق بالمسئولية تجاه الأمة عن الاستمتاع بمباهج الحياة التي كان ينهل منها قبل أن يصبح خليفة ، حتى قسا على نفسه اعتقاداً منه بأنه ربما يكون قد أسرف في الاستمتاع بالحياة الناعمة قبل الخلافة ، فكأنه أراد أن يكفر عن ذلك ، فرفض حتى استعمال مراكب الخلافة - من خيول وخلافه - لما فيها من الأبهة والفخامة ، ثم رفض أن يسكن في دار الخلافة وقال : دابتي أرفق لي وفي فسطاطي كفاية .

وتروى المصادر الكثير من القصص عن زهد عمر ، حتي أن أخبار

زهده ربما تكون قد طغت على جوانب كثيرة أكثر أهمية للمسلمين في شخصية عمر بن عبد العزيز الخليفة من الزهد نفسه ، لأن الزهد فضيلة تخصه هو وحده ، أما ما يهم المسلمين في شخصه فهو منهجه في الحكم وأسلوبه في الإدارة .

أما اثر خلافة عمر بن عبد العزيز في تاريخ بني أمية بصفة خاصة ، وفي التاريخ الإسلامي بصفة عامة ، فيتلخص في أنه قد قدم الدليل الساطع على أنه إذا صحت عزيمة الحاكم المسلم واستشعر المسئولية أمام الله عن الأمة ومصالحها أصبح في إمكانه أن يجعل العدل والرحمة والمساواة حقائق واقعة في حياتها ، وأن يقوم الأحوال المعوجة وأن يرد المنحرفين إلى سواء السبيل ، فقد أعاد عمر بن عبد العزيز سيرة الخلفاء الراشدين في الحكم والإدارة .

سياسة عمر بن عبد العزيز الداخلية :

تعتبر سياسة عمر بن عبد العزيز الداخلية من أهم الجوانب في خلافته - من وجهة نظري - ومع ذلك لم تحظ هذه الناحية بدراسة جادة حتى الآن ، ولعل من أسباب ذلك انبهار الناس وانشغالهم بما كان يتحلى به ذلك الرجل الفذ من صفات باهرة كالعدل والزهد والتقوى .

وللأسف لا يسمح لنا الوقت في هذه الدراسة بتناول سياسته الداخلية من جميع جوانبها ، ولذا فسنحاول تسليط الأضواء على بعض زواياها حتى يلتفت إليها الباحثون في التاريخ الإسلامي .

لقد كان عمر بن عبد العزيز إدارياً ممتازاً ، حيث مارس العمل الإداري حين ولاه عمه عبد الملك على خناصرة ، ثم ولاه ابن عمه الوليد بن عبد الملك على المدينة المنورة .

ثم اكتملت عناصر تجربته الإدارية والسياسية حين أصبح أقرب الناس إلى ابن عمه الخليفة سليمان بن عبد الملك مدة خلافته ، يرقب الحوادث عن قرب ، ويتمرس على شؤون الدولة وتسيير دفة الحكم فيها . فما أن آلت إليه الخلافة حتى راح يبذل كل جهده وطاقاته ، ويفني ما بقي من عمره في إصلاح أمور الدولة واستقرار الأمن و الرخاء في ربوعها ، وتحقيق العدالة والكفاية في كل أرجائها .

ولقد اتخذ لذلك منهجاً كان من أبرز معالمه الحرص على مال المسلمين ، والمحافظة على الوقت ، وسرعة التصرف في الأمور والبعد عن البيروقراطية ، وحسن اختيار الولاة والقضاة والموظفين ، وإزالة آثار كل عمل لا يساير روح الإسلام ، وتحقيق التوازن بين طبقات المجتمع ، ومجادلة الخارجين على الدولة بالحسنى لاقناعهم وردهم إلى حظيرة الجماعة ، كل ذلك في جو عام يسوده العدل والإنصاف والرحمة والإحسان ، وكل ناحية من هذه النواحي تحتاج إلى كلام كثير لولا ضيق الوقت ، ولكن اكتفى بمثل واحد على عمق معرفة عمر بن عبد العزيز بقيمة المال والوقت ، وهي الأشياء التي يبددها المسلمون الآن فيما لايفيد ، ويعانون من ذلك مالا يخفى على أحد ، من التخلف وتفاقم المشاكل وصعوبات الحياة ، ولكن عمر الفقيه كان يعرف أن صيانة المال واحترام الوقت من أهم ما يحرص عليه الإسلام ، لأنها من لوازم رقي الأمة وتقدمها .

وإليك القصة البسيطة الآتية :

جاء كتاب إلى عمر بن عبد العزيز من واليه على المدينة ، أبو بكر ابن حزم يطلب ورقاً يكتب عليه شؤون الولاية ، فماذا كان رد عمر عليه ؟ كان رد عمر هو الآتي : « أدق قلمك وقارب بين أسطرك ، فإني

أكره أن أخرج من أموال المسلمين مالا ينتفعون به » (٩١) فانظر إلى أي مدى بلغ حرصه على المال والوقت والجهد ، حيث يأمر واليه أن يجعل قلمه دقيقاً لئلاً يشغل مساحة كبيرة من الورق ، وأن يقارب بين السطور ويوجز في الكلام توفيراً للوقت والجهد والمال ، وقد يبدو هذا المثال بسيطاً عند بعض الناس ، ولكنه عظيم الدلالة على فهم الحاكم المسلم لقيمة المال والوقت والجهد ، وهي من مقومات الحياة .

وهكذا مست روح عمر بن عبد العزيز ـ ذلك الرجل الباهر ـ كل ناحية من نواحي الحياة في الأمة الإسلامية فاتزنت على الطريق السوي خطاها ، وعمها الرخاء ، حتى كان جباة الزكاة يبحثون عن فقراء يعطونهم فلا يجدون ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس (٩٢) . كل ذلك تم في سنتين وبضعة شهور .

سياسته الخارجية :

كما كان لعمر بن عبد العزيز وقفته في السياسة الداخلية ، ليعيد ما اعوج من الأمور إلى نصابه ، وإصلاح ما رآه انحرافاً عن الجادة ، سواء في الناحية الإدارية أو المالية أو غيرها ، فقد كانت له كذلك وقفة مماثلة في السياسة الخارجية ، لأنه نظر بعين ثاقبة فرأى أن مساحة الدولة الإسلامية قد اتسعت جداً ، وأن أطرافها قد ترامت وتباعدت ، ولعل الكثير من الأخطاء والمشاكل التي وقع فيها بعض الولاة والقادة قد نشأت عن هذا الاتساع الكبير ، فكل إقليم كان يضم إلى الدولة يضيف إلى أعبائها الكثيرة عبئًا آخر جديداً ، فرأى عمر أنه من الحكمة إيقاف الفتوحات ، أو الحد منها على الأقل ، لأن المحافظة على ما تم فتحه من بلاد ـ وهو كثير ـ والعمل على نشر الإسلام بين أبنائها بأسلوب حكيم وقدوة حسنة سوف يكون أجدى وأنفع للإسلام والمسلمين من المضي في

الفتوحات ، لأن أهل البلاد المفتوحة إذا أتيحت لهم الفرصة لمعرفة الإسلام ومبادئه ، ومعرفة حقيقته ، فإنهم سيجدون فيه كل ما يرضيهم روحيا وماديا ، وما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة ولذلك فبدلاً من إرسال الجيوش إلى مناطق الحدود أخذ عمر يرسل الدعاة والعلماء ليدعو الناس إلى الإسلام ، ويفقهوهم في الدين . كما أرسل إلى الملوك والأمراء المعاصرين كتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام متأسيا في ذلك برسول الله ، فقد أرسل إلى إمبراطور الدولة البيزنطية ، وإلى أمراء ما وراء النهر وإلى ملوك السند ، وقد أسلم بعض هؤلاء بل تسموا بأسماء عربية ، مثل ملوك السند عندما وصلتهم أخباره وسيرته (٩٣) .

وخلاصة القول أن عمر بن عبد العزيز في خلال سنتين وبضعة شهور قام بعدة إصلاحات هائلة في الداخل ، وأصبح موضع الرضا والاحترام من أشد الفرق عداء لبني أمية ، كالخوارج والشيعة ، أما عند علماء الأمة من أهل السنة فهو من الخلفاء الراشدين المهديين ، والعلماء العاملين (٩٤) .

ولقد تجاوزت سيرة عمر الطيبة وسمعته الحسنة حدود الدولة الإسلامية ، حيث كان يتمتع باحترام كبير في بلاط الدولة البيزنطية ، حيث أثنى عليه الإمبراطور ليون الثالث ، وتأثر تأثراً كبيراً لما بلغته وفاته وقال عنه كلاماً طيباً منه :

« ولقد بلغني من بره وفضله وصدقه مالو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيى الموتى ، ولقد كانت تأتيني أخباره باطنا وظاهراً ، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خِلْوَته بطاعة مولاه » (٩٥) .

رحم الله عمر - الذي وافته منيته في أواخر رجب سنة ١٠١هـ - فقد كان بلا شك واحداً ممن يفخر بهم الإسلام ، بل ممن تفخر بهم البشرية في كل العصور .

* * *

٩ ـ يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥هـ)

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمه عاتكة بنت يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان ، بويع له بالخلافة يوم وفاة ابن عمه الخليفة عمر بن عبد العزيز لخمس ليال بقين من رجب سنة ١٠١هـ[٩٦] .

ولد يزيد في دمشق سنة إحدى أو اثنتين وسبعين للهجرة ، وأخباره قبل توليه الخلافة تدل على أنه كان يحب العلم ويكثر من مجالسة العلماء ، يروي ابن كثير أن يزيد دخل يوماً مجلس مكحول الدمشقي ـ العالم الكبير ـ فهم الحاضرون أن يوسعوا له ، فقال لهم مكحول : « دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس ويتعلم التواضع» [٩٧] . ويبدو أنه كان ليزيد ميل إلى العد ل والاستقامة ، وقد حاول في مطلع خلافته أن يتأسى بسلفه العظيم عمر بن عبد العزيز ، ولكن قرناء السوء لم يتركوه حتى انحرف عن سياسة عمر .

يقول عنه ابن كثير : « فلما ولي ـ الخلافة ـ عزم على أن يتأسى بسيرة عمر بن عبد العزيز ، فما تركه قرناء السوء ، وحسنوا له الظلم » [٩٨] .

ومن خلال ما يرويه ابن كثير وغيره من أخبار يزيد بن عبد الملك يتضح لنا أنه وقع فريسة بطانة السوء ، الذين أفسدوه ، وصرفوه عن العناية بأمور الدولة ، ولم تتوفر له بطانة صالحة ، كما كان رجاء بن حيوة وعمر بن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك ، وكما كان رجاء ابن حيوة ومزاحم وميمون بن مهران والسدي مع عمر بن عبد العزيز ، فلا أحد ينكر تأثير البطانة والجلساء على الحاكم فالحاكم بشر تتنازعه نوازع شتى ، فإذا وجد من يذكره ويعظم له المسئولية ويخوفه مساءلة الله يوم القيامة عن أحوال المسلمين ، فالغالب أن تتيقظ فيه نوازع الخير

والصلاح ويستجيب للنصح والتذكرة ، ويروى عن الرسول ﷺ قوله في هذا الميدان : « إذا أراد الله بالأمير خيراً رزقه بطانة خير ، إذا نسي ذكروه ، وإذا ذكر أعانوه ، وإذا أراد به شراً رزقه بطانة سوء إذا نسي لم يذكروه وإذا ذكر لم يعينوه ، ويبدو أن يزيد كان ذا فطرة سليمة ، ولكن سوء حظه أوقعه في حبائل بطانة السوء التي تغلبت على أهل الصلاح ، فجرته إلى ميدانها ، ومما جعل صورة يزيد تبدو على هذا السوء أنه جاء بعد عمر بن عبد العزيز مباشرة ، مما جعل الناس يقارنون بين ماكان بالأمس من استقامة عمر وعدالته ، وبين ماهو كائن من تهافت يزيد على الملذات ، ووقوعه أسيراً في أيدي المغنين والجواري ، حتى أن قصته مع جاريتيه حبابه وسلامة طغت على تاريخه كله (٩٩) .

ورغم سيرة يزيد هذه إلا أن أحوال الدولة الأموية كانت تسير على ما يرام في الداخل ، كما كانت حدودها محمية ومرهوبة من أعدائها ، لأن الأسرة الأموية كانت لا تزال عامرة بالرجال الشجعان ، مثل مسلمة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان ابن محمد وغيرهم ، فقد عوض هؤلاء الرجال بفروسيتهم وبطولتهم نقص الخليفة ، وتصدوا بجسارة للأخطار التي هددت الدولة وأمدوا في عمرها ربع قرن أو يزيد ، فقد تصدى مسلمة بن عبد الملك لأكبر وأخطر ثورة هددت الدولة الأموية ـ بعد ثورة ابن الأشعث ـ وهي ثورة يزيد بن المهلب ، الذي كان قد تغلب على ولاة العراق وبسط سلطانه عليها ، ولكن مسلمة قضى على هذه الثورة ، كما قضى على ثورات الخوارج التي أندلعت في عهد أخيه يزيد . وهكذا استطاع رجالات بني أمية حماية الدولة من الأخطار التي تهددها في عهد يزيد بن عبد الملك ، الذي لم تطل مدته في الخلافة حيث توفى وهو في ريعان الشباب في أواخر شعبان سنة ١٠٥ هـ بعد حكم دام أربعة أعوام وشهر تقريباً .

١٠ ـ هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ)

كان الخليفة العاشر من بني أمية . والرابع من أبناء عبد الملك بن مروان الذين ولوا الخلافة ، وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي ، ولد هشام سنة ٧٢هـ (١٠٠) . ولم تحدثنا المصادر التي بين أيدينا عن شيء ذي بال عن حياته قبل أن يلي الخلافة ، ولا نعرف ما إذا كانت له مشاركة في أعمال الدولة أم لا ، إلا أننا نجده متطلعاً للخلافة عند موت أخيه سليمان ، وكان من أشد المعترضين على عهد سليمان لعمر بن عبد العزيز ، ولم تسكن نفسه ويرضى إلا بعد أن علم أن العهد تضمن البيعة لأخيه يزيد بعد عمر ، ومعنى هذا أن الخلافة ستؤول مرة أخري بعد عمر إلى أولاد عبد الملك ، وكان هو التالي ليزيد .

وتجمع المصادر التي بين أيدينا على أن هشاماً كان ذا رأي ، حازماً ذكيا عاقلاً ، بل محشو عقلاً ـ على حد تعبير الطبري (١٠١) ـ له بصر بالأمور جليلها وحقيرها ، وليس من شك في أنه كان من حسن حظ بني أمية أن يجئ هشام بعد أخيه يزيد ، حيث حكم ما يقرب من عشرين عاماً (١٠٥- ١٢٥هـ) أدار الدولة فيها بحزم ومقدرة ، حفظ لها توازنها ، وكان حكيما في تعامله مع الكتلتين العربيتين الرئيسيتين في الدولة ، وهما اليمن وقيس ، اللتين اشتد التنافس والعداء بينهما وبصفة خاصة منذ موقعة مرج راهط في عهد جده مروان سنة ٦٥هـ . وأدرك هشام أن الانحياز إلى إحدى هاتين الكتلتين على حساب الأخرى يضر بمصالح الدولة ، فانتهج سياسة متوازنة ، ولعل سياسته تلك كانت من أهم أسباب نجاحه في حكمه .

كان هشام يتمتع بالعديد من الصفات اللازمة لرجل الدولة ، مثل الحلم ، يقول الأصمعي أسمع رجل هشاماً كلاما قبيحاً ، فلم يزد على

أن قال له : « أتقول لي مثل هذا وأنا خليفتك » (١٠٢) ، كما كان متواضعاً عفيف اللسان ، فإذا غضب وبدت منه كلمة نابية في حق إنسان اعتذر عنها على الفور ، ولا تأخذه العزة بالإثم فيها (١٠٣) . وكان عادلاً يحب الإنصاف ويطبقه بين رعيته على اختلاف أجناسهم وأديانهم . روى الطبري عن مروان بن شجاع ، مولى مروان بن الحكم ، قال : « كنت مع محمد بن هشام بن عبد الملك فأرسل لي يوماً ، فدخلت عليه ، وقد غضب وهو يتلهف ، فقلت مالك؟ فقال : رجل نصراني شج علامي وجعل يشتمه ، فقلت له على رسلك؟ قال فما أصنع؟ فقلت ترفعه إلى القاضي ، قال : وما غير هذا ؟ قلت لا : قال خصيٌ له أنا أكفيك ، فذهب فضربه ، وبلغ هشاماً ، فطلب الخصي ، فعاذ بمحمد ، فقال محمد بن هشام . لم آمرك ، وقال الخصي بلي والله لقد أمرتني ، فضرب هشام الخصي وشتم ابنه » (١٠٤) .

أما أبرز صفات هشام بن عبد الملك فهي تدبيره للأموال وحفظها ، حيث كان يحرص على جمع المال من وجوهه المشروعة ، وانفاقه في وجوهه المشروعة دون تبذير أو تقتير ، يروى الذهبي عن أبي عمير بن النماس عن أبيه قائلاً :« كان لا يدخل بيت المال لهشام شيء حتى يشهد أربعون قسامه ، لقد أخذ من حقه ، ولقد أعطى الناس حقوقهم» (١٠٥) ولقد بلغ من حسن تدبير هشام لأموال المسلمين وسلامة دواوينه أن شهد له أعدى أعدائه عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، حيث قال : « جمعت دواوين بني مروان فلم أر أصلح للعامة ولا للسلطان من ديوان هشام » (١٠٦) .

ومن صفات هشام التي شهد له بها المؤرخون بغضه لإراقة الدماء ، ولقد ندم ندماً كبيراً على مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي

طالب [١٠٧] .

وهكذا تجمعت في هشام صفات عديدة مكنته من النجاح في حكم الدولة الإسلامية - التي امتدت حدودها من الأندلس غرباً حتى الصين شرقاً ، ومن آسيا الوسطى شمالاً حتى المحيط الهندي جنوباً - حوالي عشرين عاما .

ولم يكن هشام بن عبد الملك رجل دولة من طراز رفيع في إدارة شؤون الدولة الداخلية فحسب ، بل أظهر مقدرة فائقة في الشؤون الخارجية ، وأعطاها عناية كبيرة ، فصان حدود الدولة وأدّب أعداءها ، يقول المؤرخ الألماني فلهاوزن : « ولا شك أن المؤرخ يخطيء في تصور هشام ، إذا ظن أنه كان خليفة لا هم له إلا أمور الإدارة والشؤون الداخلية ، على أن هشاماً لم يكن جنديا ولكنه لم يكن يرهب الحروب ، بل هو وجهها بهمة وبكل الوسائل ، وجهز جيوشاً كبيرة ، ولم يدخر في ذلك الأموال ولا حياة الرجال ، وكانت يداه دائماً مشغولتين بالمشروعات الحربية في أكثر المواضع تباعداً » [١٠٨] . فقد كانت جيوشه تقف بالمرصاد للروم ، ولم يكف عن غزوهم باستمرار ، وكان يسند قيادة جيوشه في معظم الأحيان إلى رجال من أسرته ، مثل أخيه مسلمة بن عبد الملك ، وأبنائه هو معاوية وسليمان ، وأبناء عمومته مثل مروان بن محمد ، وأبناء أخوته ، مثل العباس بن الوليد .

هذا هو هشام بن عبد الملك الذي كان من أقوى خلفاء بني أمية وأرجلهم علي حد تعبير المؤرخ اليعقوبي [١٠٩] .

وقد توفى هشام بن عبد الملك في السادس من ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ .

١١ ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك

(١٢٥ ـ ١٢٦ هـ)

الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، أول حفيد من أحفاد عبد الملك يلي الخلافة ، حيث كان أبوه يزيد بن عبد الملك حين عهد لأخيه هشام بالخلافة من بعده ، قد جعل ابنه ولي عهد له ، فلما مات هشام بالرصافة في ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ صلى عليه الوليد بن يزيد ، ثم بويع له بالخلافة بعد عمه في نفس اليوم (١١٠) .

وتعتبر خلافة الوليد بن يزيد بداية النهاية للدولة الأموية ، حيث انفجرت المشاكل في كل مكان والأخطر من ذلك أن الانقسامات حدثت بين أبناء البيت الأموي نفسه وأصبح بأسهم بينهم شديد .

فرغم أن الوليد استهل عهده بزيادة رواتب الجند ـ وقد يسر له ذلك كثرة الأموال التي تركها عمه هشام ، الذي اشتهر بتدبير الأموال ـ ورغم أنه اشتهر بصفات حسنة وميل إلى فعل الخير على حد تعبير ابن كثير الذي يقول :

« ثم إن الوليد بن يزيد سار في الناس سيرة حسنة بادئ الرأي . وأخرج من بيت المال الطيب والتحف لعيالات المسلمين ، وزاد في أعطيات الناس ، ولا سيما أهل الشام والوفود ، وكان كريماً ممدوحاً شاعراً مجيداً ، لا يسأل عن شيئ فيقول لا » (١١١) ، رغم هذه البداية الطيبة إلا أن الوليد لقي مصرعه على أثر ثورة قامت ضده بتدبير ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وبعض أبناء عمومته الآخرين ، هشام وسليمان والحجاج .

وقد نجح هؤلاء في تلطيخ سمعة الوليد ، واتهموه بالفسق والفجور والعكوف على شرب الخمر والغناء ، حتى اتهموه بأنه هم بشرب الخمر فوق الكعبة عندما أمَّرهُ عمه هشام على الحج سنة ١١٩هـ . كما اتهم بأنه أهان المصحف الشريف ، إلى غير ذلك من التهم الشنيعة التي ألصقها أبناء البيت الأموي بابن عمهم ، والحقيقة أنه بالتكامل والبحث في النصوص اتضح أن هذه التهم مبالغ فها ، بل تكاد تكون مختلقة من أساسها ، ودفع إليها الحقد والخصومة ، فبعض المصادر التاريخية تروى ما يدل علي أن الوليد لم يكن على هذه الصورة الماجنة الفاجرة ، فابن الأثير يروي أن الوليد كان عفاً ذا مروءة وكان ينهي الناس عن الغناء لأنه يزيد في الشهوة ويهدم المروءة ، ثم يقول :« وقد نزه قوم الوليد مما قيل فيه وأنكروه ونفوه عنه ، وقالوا : أنه قيل عنه وليس بصحيح » (١١٢) .

وروى الطبري وتابعه ابن الأثير وابن كثير ، أنه لما أحاط اتباع يزيد ابن الوليد بالوليد بن يزيد في قصره وحصروه قبل أن يقتلوه ، قالوا : « فدنا الوليد من الباب ، فقال أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه ، فقال له يزيد بن عنبسةا لسكسكي ، كلمني ، قال له : من أنت ؟ قال : أنا يزيد بن عنبسة ، قال : يا أخا السكاسك ، ألم أزد في أعطياتكم ؟ ألم أرفع المؤن عنكم ؟ ألم اعط فقراءكم؟ ألم أخدم زمناكم ؟ فقال : إنا ما ننقم عليك في أنفسنا ، ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ، ونكاح أمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله ، قال : حسبك يا أخا السكاسك ، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت ، وإن فيما أحل لي لسعة عما ذكرت ، ورجع إلى الدار فجلس وأخذ مصحفا ، وقال يوم كيوم عثمان ، ونشر المصحف يقرأ ، ثم قتلوه ، وكان آخر كلامه قبل أن يقتل ، أما والله لئن قتلتموني لا يرتق

فتقكم ،ولا يلم شعثكم ، ولا تجمع كلمتكم » [١١٣] . فهذا يدل على أن التهم التي ألصقت بالوليد كانت باطلة أشاعها حوله أعداؤه من أبناء أعمامه ، فالذي يفزع إلى المصحف عندما أحيط به كيف ينسب له إهانة المصحف ، ثم كيف يمكن للإنسان أن يصدق أن الوليد ـ وكان ولي عهد يعني خليفة المسلمين في المستقبل ـ يهم بشرب الخمر فوق الكعبة وهو أمير الحج؟ وهل ضاقت عليه الدنيا حتي لم يجد مكاناً يشرب فيه الخمر غير الكعبة ، إن هذا لو حدث من حاكم مسلم في عصرنا هذا لرماه الناس بالحجارة ، فكيف بالوليد ـ خليفة المسلمين ـ وهو في عصر قريب من عصر النبوة والخلافة الراشدة ، ومليء بالعلماء والصالحين من التابعين .

علي كل حال أذن الله لدولة بني أمية أن تزول ، وحق عليهم قول الله تعالى : «يخربون بيوتهم بأيديهم» ولم نبعد عن الصواب حين قلنا إن مقتل الوليد على أيدي أبناء عمومته كان بداية النهاية لدولتهم ، ولم يجتمع لهم كلمة بعده كماحذرهم الوليد نفسه ، ولقد حاول بعض أبناء البيت الأموي ـ مثل العباس بن الوليد أخو يزيد قائد الثورة على الوليد ـ ومروان بن محمد أن يوقفوا التدهور الذي آل إليه أمر بني أمية وأن يمنعوا الثورة على الوليد لكنهم فشلوا في ذلك ، واستطاع الثوار الإحاطة بالوليد في قصره في قرية تسمى البخراء ، على بعد أميال من تدمر ، وقتلوه في أواخر جمادي الآخرة سنة ١٢٦هـ . وجاء مقتله دليلاً على حالة الانهيار الذي وصل إليه بنو أمية ، الذين فقدوا كل إحساس بالمحافظة على دولتهم والأخطار التي كانت تحدق بها من كل جانب ، ولقد سهلوا بعملهم هذا لأعدائهم القضاء على دولتهم وعليهم جميعاً في مدى سنوات قلائل بعد مقتل الوليد بن يزيد .

١٢ ــ يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(١٢٦ــ١٢٧ هــ)

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمه شاه آفريد بنت فيروز بن يرزجرد ـ آخر ملوك الفرس ـ وكان يجمع في أصوله بين الدم العربي والفارسي والتركي والرومي . فجده لأبيه عبد الملك بن مروان ، وهو عربي ، وجده لأمه فيروز بن يرزجرد ، وهو فارسي ، وجده لأمه ابنة قيصر ، وأم جدته لأمه ابنة خاقان الترك ، لذلك كان يزيد يفخر بذلك ، ويقول :

أنا ابن كسرى وأبـي مروان   وقيصر جدي وجدي خاقان (١١٤)

ويزيد هذا هو الذي قاد الثورة على ابن عمه الوليد بن يزيد وقتله ، وأخذ البيعة لنفسه ، وأصبح الخليفة الثاني عشر في سلسلة خلفاء بني أمية ، وكان يظهر الصلاح والتقوى ، ويتشبه بعمر بن عبد العزيز وبذل جهداً كبيراً في ذلك المجال حتى يمحو من الأذهـان صنيعه بابن عمه ، ولكنه لم ينجح في ذلك ، واضطربت عليه الأمور ، ومما زاد الأمر سوءاً أنه انقص من أعطيات الجند التي كان زادها لهم الوليد ، فسمى بيزيد الناقص ، وسوف ينقم الجند عليه ذلك ما سيكون له عواقب وخيمـة عليه .

اضطراب الأمر على يزيد ونهايته :

لا نبالغ إذا قلنا أن يزيد بن الوليد بن عبد الملك كان من الأسباب المباشرة لسقوط الدولة الأموية ، لأنه جر عليها كوارث كانت في غنى عنها ، وشغل أبناء البيت الأموي في صراع مرير وأنهك قواهم ، في

وقت نشط فيه دعاة بني العباس ، وضاعفوا جهودهم للقضاء على الدولة الأموية ، ومما زاد الأمور سوءاً واضطراباً أن يزيد لم يستطع الوفاء بوعوده التي وعدها للناس ، واضطر أن يحابي اليمنيين الذين ساعدوه في الوصول إلى الخلافة ، فأغدق عليهم الأموال ، وذلك أدى إلى إغضاب قبائل قيس ، فهبت في وجهه الثورات في كل مكان ، وكان أول إقليم هبت منه الثورة هو ـ حمص ـ الذي كان أهله موالين للخليفة المقتول ، الوليد بن يزيد ، ولم تلبث الثورة أن امتدت إلى فلسطين والأردن ، ومع أن يزيد استطاع التغلب على تلك الثورات (١١٥) ، وبدا له أنه سيطر على الموقف بعد القضاء على مناوئيه ، إلا أنه لم يستمتع بذلك طويلاً ، فقد توفى بعد ستة شهور تقريباً من بداية خلافته ـ جمادي الآخرة ـ ذو الحجة سنة ١٢٦هـ ، ليترك الشام وهي ـ الحصن الحصين للدولة الأموية ـ تشتعل ناراً ، مما عجل بزوال الدولة كلها .

* * *

١٣ ــ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك

كان يزيد بن الوليد قبل وفاته قد عهد بالخلافة من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد ، فبويع له بعد وفاته في ذي الحجة سنة ١٢٦هـ . ولكن لم يتم له الأمر ، فكان الناس كما يقول الطبري [١١٦] : جمعة يسلمون عليه بالخلافة ، وجمعة بالإمارة ، وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمارة ، فقد رفضت معظم أقاليم الشام بيعته ، وكان أول من رفضها هم أهل حمص ، فحاول إبراهيم حملهم على البيعة بالقوة ، حيث أرسل إليهم جيشاً بقيادة ابن عمه عبد العزيز بن الحجاج ابن عبد الملك ، ليأخذ له منهم البيعة بالقوة ، ولكن لم يتم له ذلك ، إذ بينما هو يحاصرهم ، داهمه مروان بن محمد بن مروان ، فترك حمص ودخلها مروان ، وبايعه أهلها ، و ساروا معه قاصدين دمشق ، فلقيه جيش آخر لإبراهيم بن الوليد ـ على قيادته ابن عمه سليمان بن هشام بن عبد الملك ـ عدته مائة وعشرون ألفاً ، وكان مع مروان حوالي ثمانين ألفاً ، ودارت بينهما معركة في مكان يسمى ـ عين الجر ـ بين دمشق وبعلبك ، فهزم سليمان ، و قتل من جيشه حوالي سبعة عشر ألفاً ، وأسر مثلهم ، ثم زحف مروان على دمشق ، ووصلها ليجد إبراهيم بن الوليد قد هرب منها هو وأنصاره ، فبايع له الناس بالخلافة في ربيع الآخر سنة ١٢٧هـ . فكانت مدة خلافة إبراهيم بن الوليد حوالي أربعة أشهر ، وتسلم مروان بن محمد الخلافة الأموية وهي في أسوأ حالاتها ، وقضى مدته في صراع مرير مع أحداث أقوى منه ، وواجه دنيا مريرة ، ودولة ممزقة ، قدر له أن يكتب الفصل الأخير من حياتها على يديه .

* * *

١٤ ــ مروان بن محمد بن مروان (١٢٧ ــ ١٣٢هــ)

آخر خلفاء بني أمية

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وأمه أَمَة كردية ، وقد ولد حوالي سنة ٧٠هـ (١١٧) ويعتبر من فرسان بني أمية وشجعانهم ، ويعادل في فروسيته ابن عمه مسلمة بن عبد الملك ، فلما تصدى مسلمة بكل حزم وقوة للروم ، وحمى حدود المسلمين منهم ، بل استولى على الكثير من حصونهم ومعاقلهم ، فقد تصدى مروان بن محمد للترك ، حيث كان ابن عمه الخليفة هشام بن عبد الملك قد ولاه على أرمينية وأذربيجان سنة ١١٤هـ (١١٨) وهي الولاية التي شهدت بطولات أبيه محمد بن مروان ، في خلافة أخيه عبد الملك ، وكانت هذه الولاية ، كما يقول فلها وزن : تتطلب جنديا ماهراً ، وكان مروان كفأ لهذه المهمة الصعبة ، «فقد استطاع أن يدافع عن ثغر القوقاز دفاعاً لا يلين ، وأن يقوم بغزوات موفقة في أرض الترك (١١٩) .

وقد ظل مروان والياً على أرمينية وأذربيجان حتى مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ فغضب لمقتله ، وخرج من أرمينية قاصداً دمشق ليطالب بدمه ، ولكن الخليفة الجديد يزيد بن الوليد ترضاه وأضاف إليه إقليم الجزيرة والموصل فرضي وبايع ليزيد (١٢٠) .

ولكن يزيد توفى سريعاً ، وترك الأمر لأخيه إبراهيم بن الوليد ، الذي لم يستطع السيطرة على الموقف ، حيث اندلعت في وجهه الثورات ، فما كان من مروان إلا أن زحف على دمشق ــ وكان إبراهيم قد هرب منها كما ذكرنا سابقاً ــ وأخذ البيعة لنفسه في محاولة أخيرة لإنقاذ الدولة الأموية ، ولكنها محاولة لم يكتب لها النجاح ، لأنه رغم ما

كان يتمتع به مروان من صفات عاليه ، مثل الشجاعة والصبر والإقدام وسداد الرأي ، إلا أن الأقدار شاءت أن تكتب على يديه نهاية الدولة الأموية .

والحقيقة لا يستطيع الإنسان أن يلوم مروان ويحمله مسئولية زوال الدولة ، لأن العوامل التي أدت إلى زوالها كانت تتفاعل منذ زمن بعيد ، وقدر له وحده أن يجني الثمار المرة لأخطاء ارتكبها آخرون ، وأن يصارع أحداثاً كانت كلها تعمل ضده ، وأول خطر واجهه مروان هو إنقسام أبناء البيت الأموي على أنفسهم ، والذي أدى بدوره إلى انقسام كتلتي العرب الرئيسيتين في الشام ، وهما اليمنيون والقيسيون ، فقد انقلب اليمنيون ضد مروان وانحازوا لكل خصومه ، وانحاز إليه القيسيون ، وخطورة هذا الانقسام أنه حدث في الشام مقر الخلافة والحصن الحصين للأمويين ، ولهذا كان اضطراب الأمر في الشام إيذاناً باضطراب أمر الدولة كله . وقد حاول مروان منذ بويع في دمشق أن يهدئ خواطر الناس ، ويبعث الثقة في النفوس ، وحقق بعض النجاح في ذلك ، حيث سمح لأهل ولايات الشام أن يختار أهل كل ولاية من يحبون لولايتهم (١٢١) . وبعد أن رتب أوضاع الشام أو خيل له ذلك - غادر دمشق إلى حران - بالجزيرة - التي اتخذها عاصمة لحكمه ، وتمشيا مع خطته في إصلاح الأحوال ، وكبح جماح الفتنة ، فقد عفى عن إبراهيم ابن الوليد وسليمان بن هشام وأمنهما وبايعاه (١٢٢) . وبدأت الأمور وكأنها آخذة في التحسن والاستقرار ، ولكن هذا الهدوء لم يكن إلا بمثابة السكون الذي يسبق العاصفة ، فلم يلبث الخليفة إلا قليلاً حتى أخذت الأنباء تتوارد عليه بنشوب الثورات والقلاقل في الشام ، حيث نشبت ثورة في حمص - التي كانت مواليه له وكانت من أوائل الأقاليم التي بايعته - ثم تلتها ثورة في الغوطة ، وأخرى في فلسطين ، وهكذا

سرت حمى الثورة ضد مروان في الشام كلها ، وهي مرتكز الأمويين الرئيسي .

وليت الأمور توقفت عند هذا الحد ، بل إن أبناء البيت الأموي ازداد انقسامهم على أنفسهم ، وغرقوا في التيه والضلال ، ولم يقدروا مصلحتهم ، ولا حرج موقف دولتهم ، فمنهم من ثار على الخليفة ثورات عارمة ، مثل سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان مروان قد عفا عنه ، ومنهم من انضم إلى أعداء دولتهم ، مثل عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الذي انضم إلى الخوارج ضد ابن عمه مروان ، وهكذا أخذت الأحوال تزداد سوءا أمام مروان .

نهاية مروان والدولة الأموية وقيام الدولة العباسية :

في هذا الجو العصيب الذي انقسم فيه الأمويون على أنفسهم ، وأخذوا يحاربون بعضهم البعض ، ولم يعطوا مروان فرصة لرأب الصدع ، وإعادة الأمور إلى نصابها في الشام ، بدأت الثورات والقلاقل تنفجر في كل مكان ، فقد شجع انقسام الأمويين على أنفسهم ، واضطراب أمرهم في الشام ، شجع كل ذلك أحد أفراد البيت الهاشمي ، وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . على القيام بثورة عارمة في العراق (١٢٧ - ١٢٩هـ) .

كما قام الخوارج بآخر ثوراتهم في عهد الدولة الأموية ، بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني في العراق - ١٢٧-١٣٠هـ - وأبي حمزة الخارجي في الجزيرة العربية - ١٢٨-١٣٠هـ . والأدهى من ذلك كله أن الخلل والارتباك والاضطراب سري في أجزاء الدولة كلها من خراسان إلى الأندلس .

وبينما مروان يواجه هذا الموقف العصيب ، ويحاول إنقاذ الدولة ، وينتقل من ميدان إلى ميدان فاجأته الثورة العباسية من خراسان كالسيل المنهمر فاكتسحت قواته في خراسان والعراق ، ثم هزمه العباسيون هزيمة ساحقة في موقعة الزاب في جمادي الآخرة سنة ١٣٢هـ . ففر الى مصر ، ولكن العباسيين لاحقوه وقتلوه في ذي الحجة من العام نفسه ، وبموته زالت الدولة الأموية من الوجود وصدق الله العظيم الذي يقول : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٢٣) .

وإذا كان مروان قد قتل في ذي الحجة سنة ١٣٢هـ . إلا أن الدولة العباسية قد قامت فعلاً قبل ذلك ، حيث قد بويع لأبي العباس عبد الله ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ـ الذي لقب بالسفاح ـ بويع له بالخلافة في الكوفة في شهر ربيع الأول ـ وقيل الثاني وقيل جمادي الأولى سنة ١٣٢هـ (١٢٤) ـ ليصبح أول خليفة عباسي . وهكذا جنى العباسيون ثمار عملهم الدؤوب الذي استمر حوالي نصف قرن ، وهم يخططون لإسقاط الدولة الأموية ، وقد توفر لحركتهم أو دعوتهم أو ثورتهم كل عناصر النجاح من قيادة واعية منظرة ، وبارعة في وضع الخطط ، ومن دعاة على أعلى درجة من الثقافة والإخلاص للدعوة والتفاني في سبيلها ، وقد تحلّى الجميع بالصبر فلم يتعجلوا قطف الثمار ، بل أخذوا على مدى ثلث قرن يؤلبون العباد والبلاد على بني أمية ، ونجحوا نجاحاً كبيراً ، حتى إذا حان الوقت انقضوا عليهم كالصاعقة ، وأزالوا دولتهم من الوجود كما سبق وأن ذكرنا .

الفصل الثاني

الخلفاء الأمويون وتطور نظام الخلافة

لسنا في هذا الفصل معنيين في البحث هل الإسلام دين فقط ؛ أم دين ودولة ؟ فهذه قضية حُسمت أو هي محسومة ، منذ أقام الرسول ﷺ الدولة الإسلامية في المدينة المنورة بعد الهجرة ، واقعاً عمليا ، ومارس هو ﷺ رئاسة الدولة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معاني .

فالإسلام لم يأت بعقيدة التوحيد وحدها ، ولا بالمبادئ الأخلاقية المثالية التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي السليم فحسب ، « بل جاء مع هذا وذاك بالشريعة المحكمة العادلة ؛ هذه الشريعة التي تحكم الإنسان وتصرفاته ومعاملاته في كل حال ، في خاصة نفسه . وفي علاقته بأسرته ، وفي علاقاته بالمجتمع الذي يعيش فيه ، وفي علاقة دولته بالدول الأخرى » (١٢٥) .

والنصوص التي تؤكد هذه الحقيقة من القرآن والسنة ، وتطبيقات الرسول ﷺ وصحابته أكثر من أن تحصر .

كذلك لسنا معنيين هنا في البحث حول وجوب إقامة خلافة ، أي حكومة إسلامية أم لا ؟ فهذه القضية أيضاً فرغ منها منذ زمن بعيد ، فأهل السنة وجميع الفرق الإسلامية الأخرى ، أجمعوا على وجوب نصب إمام أو خليفة لتدبير شؤون المسلمين ، ولم يشذ عن ذلك إلا الأصم من المعتزلة والنجدات من الخوارج (١٢٦) .

وتصرف الصحابة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة أقوى البراهين على ذلك كله ، فقد فرغوا من اختيار خليفة يخلف النبي ﷺ

في قيادة الأمة وسياسة أمورها في اليوم الأول لوفاته ، وقالوا : « كرهنا أن نبيت ليلة واحدة بدون إمام » وهذا يمثل قمة الإحساس بالمسؤولية ، وفهم طبيعة الإسلام ، الذي هو عقيدة وشريعة ونظام شامل لأمور الدين والدنيا ، هذا كله معروف .

أما ما يعنينا هنا فهو تطور نظام الخلافة من نظام يقوم على الاختيار الحر لأفضل الرجال القادرين على قيادة الأمة ، عن طريق البيعة ، وهي الطريقة التي كانت تتناسب مع المجتمع في ذلك الزمان ، إلى نظام يقوم على التوريث . من خليفة سابق إلى خليفة لاحق من أسرة واحدة ، و هذا هو التطور الهام والخطير الذي أحدثه الأمويون على نظام الخلافة ، وهذا ما نحاول هنا أن نشرح كيف حدث .

خلافة أبي بكر :

من المؤكد أن الرسول ﷺ لم يسم أحداً بشخصه يتولى أمور المسلمين بعده ، ولم يحدد طريقة بعينها لاختيار خليفته . وليس بوسع أحد أن يأتي بنص صريح ثابت عنه ﷺ يخالف ما نقول ؛ وترك تحديد الشخص وتعيين الطريقة أمرٌ مقصود من الرسول ﷺ لحكمه (١٢٧) . لأنه لو سمَّى شخصاً بعينه لظن الناس أن هذا أمر من صميم الدين ، وفي هذه الحالة سيكتسب هذا الشخص نوعاً من القداسة وسيترتب على ذلك أمور خطيرة ، منها أنه سيكون فوق النقد والمساءلة ، ومنها أن الأمر سيئول إلى التوريث الذي تحاشاه الخلفاء الراشدون الأربعة بشكل قاطع . ولو حدد لهم الرسول ﷺ طريقة بذاتها للاختيار لوضعهم في قالب جامد وصيغة محددة ، إن كانت تلائم زمنهم وبيئتهم فقد لا تلائم غيرهم في أزمان لاحقة ومجتمعات مغايرة . فإذا كان نظام البيعة القائم على المصافحة باليد وجها لوجه تعبيراً عن الموافقة يوافق بيئة وزمن

الخلفاء الراشدين ، فإن تطور الزمن واتساع الدولة قد يتطلب طريقة أخرى كالانتخاب المباشر أو الانتخاب على درجات كما يحدث في بعض الدول الآن .

لذلك كله ترك النبي ﷺ أصحابه أحراراً في اختيار الشخص الذي يرونه أصلحهم لتولي أمورهم ، وبالطريقة التي تناسبهم ، وهو واثق من قدرتهم على حل تلك المشكلة في ضوء فهمهم لمقاصد الشريعة العليا وماعلّمهم إياه من الأخذ بالشورى ، وتعويدهم على إبداء آرائهم في القضايا العامة التي لم ينزل فيها وحي من السماء .

وكل ما تطمئن إليه النفس حول قضية الخلافة ، وموقف الرسول ﷺ منها أنه ﷺ أومأ لهم إيماءة ذات مغزى ، حين أمر أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، أن يؤم المسلمين في الصلاة ، في مرضه الذي توفى فيه ، وكأنى به عليه الصلاة والسلام ، قد أراد أن يدلي برأيه في المسألة عن طريق الترشيح فقط . وكأنه قال لهم : أرشح أبا بكر للخلافة بعدي ، فإن رأيتموه أهلاً لها ، وصالحاً لتحقيق مصلحتكم ، في دينكم ودنياكم فأنتم وذاك ، وإلا فلتروا لأنفسكم . وهذا ما فهمه كثيرون من علماء الأمة ، ومنهم الحافظ ابن كثير ، فقد قال بعد أن استعرض أمر الخلافة من جميع جوانبه : « ومن تأمل ما ذكرناه . . . ظهر له أن رسول الله ﷺ لم ينص على الخلافة عيناً لأحد من الناس ، لا لأبي بكر كما قد زعمه طائفة من أهل السنة ، ولا لعلي ، كما يقول طائفة من الرافضة ، ولكن أشار إشارة قوية ، يفهمها كل ذي لب وعقل إلى الصدِّيق» (١٢٨) .

وقد فهم الصحابة ، رضوان الله عليهم ، إشارة نبيهم ، وكانت هادية لهم في اختيار الصدِّيق (١٢٩) ، في سقيفة بني ساعده ، ليخلف النبي ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا به (١٣٠) . وقالوا رضيه

رسول الله لديننا أفلا نرضاه نحن لدنيانا [١٣١] ، وهكذا تمت بيعته على مرحلتين ، الأولى في السقيفة ، وسميت البيعة الخاصة ، في اليوم الذي توفى فيه رسول الله ، والثانية في مسجده بعد دفن جثمانه الطاهر ، ولا يعنينا هنا تفصيل ما دار في السقيفة من حجج وآراء ، فهذا موضعه مكان آخر ، وإنما تهمنا النتيجة وهي اختيار الحاكم الأعلى للمسلمين بطريقة شورية حرة ، في مؤتمر سياسي ، يقول عنه المستشرق ماكدونالد : « إن اجتماع السقيفة يذكرنا إلى حد بعيد بمؤتمر سياسي ، دارت فيه المناقشات وفق الأساليب الحديثة » [١٣٢] .

تولية عمر بن الخطاب الخلافة :

أفاض العلماء في الكلام عن الصحابة ، وأفضلية بعضهم على بعض ، خاصة الخلفاء الراشدين ، والذي تطمئن إليه نفس المسلم الحق ، أن ترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل كترتيبهم في الخلافة ، وقد فهم بقية الصحابة هذا ، ومن ثم عندما تأخر أبو بكر ، مرة عن الصلاة أثناء مرض الرسول ﷺ ، قدم بلال اجتهاداً منه عمر بن الخطاب ليؤم المسلمين نيابة عن أبي بكر ، ومع أن الرسول ﷺ ، اعترض على هذا عندما سمع صوت عمر وقال : « أين أبو بكر يأبى الله ذلك والمؤمنون» ، أقول رغم هذا الاعتراض ، إلا أن تصرف بلال التلقائي ، يدل على أن الصحابة كما كانوا يعلمون أن أفضلهم بعد الرسول ﷺ أبو بكر ، فقد كانوا يعلمون كذلك أن أفضلهم بعد أبي بكر عمر بن الخطاب ، رضي الله عنهم جميعاً . وكان أعرفهم بعُمَر أبو بكر نفسه ، ولذلك اتجه نظره إليه لتوليه الخلافة بعده ، لما طلب المسلمون منه ذلك بعد أن رد أمرهم إليهم ، فعندما مرض قال للمسلمين : « إنه قد نزل بي ما ترون ، ولا أظنني إلاَّ ميتاً لما بي من المرض ، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي ،

وحل عنكم عقدتي ، ورد عليكم أمركم ، فأمِّروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمرتم في حياة مني ، كان أجدر ألا تختلوا بعدي » (١٣٣) .

هكذا أراد الصديق ﷺ أن يختار المسلمون أنفسهم خليفتهم بملئ إرادتهم ومطلق حريتهم ، لكنهم طلبوا منه أن يرشح لهم هو من يراه أصلح لتولي الخلافة بعده ، والنهوض بتبعاتها الجسام ، فقبل القيام بالمهمة وطلب منهم مهلة ، حتى ينظر لله ولدينه ولعباده ثم استقر رأيه على عمر بن الخطاب ، ولكنه لم يشأ أن يكتفي بالترشيح من عند نفسه ولم يركن لرأيه الشخصي في عمر ، وإنما استشار فيه كبار الصحابة ، فأثنت أغلبيتهم على عمر وزكته ، وباركت ترشيحه للخلافة (١٣٤) ، لكن هناك قلة أظهرت عدم رضاها عن هذا الترشيح ، بل اعترضت إعتراضاً صريحاً وواجهت أبا بكر باعتراضها هذا ، وبررته بقسوة عمر وشدته عليهم ، لكن أبا بكر طمأنهم إلى أن مايلاحظونه من شدة عمر إنما هو لله وفي الله ، وأنه يشتد لأنه يرى أبا بكر لينا رقيقاً ، ليحدث نوعاً من التعاون في قمة السلطة ، بين الخليفة ومساعده الأيمن ورجله الأول ، وقال أبو بكر للمعترضين : لو أفضي الأمر إلى عمر لترك كثيراً مما هو عليه (١٣٥) . على كل حال هذا الاعتراض لا يقلل أبداً من سداد رأي أبي بكر في عمر ، ولا من شأن عمر نفسه ، لكنه يدل على حيوية الرجال وحريتهم في إبداء آرائهم في الشخص الذي سيحكمهم ، وهذه ثمرة من ثمرات تربية النبي ﷺ لهم ، وتدريبهم على إبداء الرأي في القضايا العامة دون خوف ويكفي أن الغالبية العظمى من الصحابة أجمعت على تزكية عمر والرضا به ، وهذا يكفي ، وهذا ما تسير عليه الأمم الحية في اختيار حكامها .

إطمأن أبو بكر ، ورضيت نفسه ، بعد استشارة كبار الصحابة ،

على اختيار عمر بن الخطاب ، ليتولى أمانـة المسؤولية بعـده في قيادة الأمة ، وأشرف على الناس ، وأسماء بنت عميس ـ زوجه ـ ممسكته ، وقال لهم : « أترضون بمن استخلف عليكم ؟ فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ، ولا وليت ذا قرابة ، وإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فقالوا سمعنا وأطعنا » (١٣٦) .

وهكذا أراد أبو بكر أن يطمئن إلى رضا المسلمين باختياره ، فرضاهم هو الذي عقد له البيعة وجعله خليفة شرعيا ، لا مجرد ترشيح أبي بكر له . « ولو لم يرضوه وبايعوا غيره ما كان عهد أبي بكر حجة عليهم (١٣٧) ، لأن الخليفة يستمد سلطاته من الأمة التي يمثلها ، والتي وكلته في القيام بمهام منصبه » (١٣٨) .

عثمان بن عفان :

كان اختيار عمر بن الخطاب ـ كما رأينا ـ للخلافة بترشيح وعهد من الخليفة السابق ، تأكد برضى المسلمين وبيعتهم له ، وهي طريقة في الاختيار تختلف عن الطريقة التي اختير بها أبو بكر نفسه ، فأبو بكر لم يكن له عهد من الرسول ﷺ . وهنا في اختيار الخليفة الثالث ، وجدنا طريقة ثالثة مختلفة عن السابقتين ، حيث تم اختيار عثمان من بين ستة رشحهم عمر بن الخطاب ليختاروا واحداً منهم . عندما امتدت يد آثمة ، هي يد أبي لؤلؤة المجوسي وطعنت الفاروق طعنة قاتلة . طلب المسلمون من عمر أن يعهد لأحد يخلفه في قيادة الأمة ، ولكنه لم يشأ أن يعهد لواحد بعينه ، وإنما حصرها في بقية العشرة المبشرين بالجنة من الصحابة ، واستبعد منهم سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو ابن عمه ، مَظَنَّة أن يميل إليه الإختيار لقرابته منه ، كما استبعد تماماً إبنه عبد الله ، ورد رداً قاسيا على من أشار عليه بذلك ، وهذا يدل على ثاقب نظره في إبعاد

شبهة الوراثة عن نظام الحكم في الإسلام .

قال عمر للمسلمين : « عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ « إنهم من أهل الجنة » سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، منهم ، ولست مُدخِله ؛ ولكن الستة : علي وعثمان ـ أبنا عبد مناف (١٣٩) ، وعبد الرحمن بن عوف ، ـ وسعد بن أبي وقاص ـ خالا رسول الله ﷺ ، والزبير بن العوام ، حواري رسول الله ﷺ ، وابن عمته ، وطلحة الخير بن عبد الله ، فليختاروا منهم رجلاً ؛ فإذا ولّوا واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه (١٤٠) .

وهكذا حصر عمر الخلافة في هؤلاء الستة ، الذين هم أعيان الصحابة وكبارهم وحدد لهم ثلاثة أيام بعد وفاته ، يتشاورون فيها ، وقال : « ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم » (١٤١) .

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل قصة الشورى ، وإنما يهمنا نتيجتها ، التي انتهت إليها بعد أن أخذت حقها كاملاً من التشاور ، حيث نزع عبد الرحمن بن عوف نفسه منها ليكون له حق الاختيار ، وبعد استطلاع رأي أهل الشورى أنفهسم ، وكثيرين غيرهم من الصحابة وأهل الأمصار ، وجد أن الأغلبية تميل إلى عثمان بن عفان ، فأعلن ترشيحه ، وطلب من الصحابة مبايعته ، فبايعوه بالإجماع ، ولم يتخلف منهم أحد (١٤٢) ، وبيبعتهم ـ لا بمجرد ترشيح عبد الرحمن ـ أصبح خليفة شرعياً .

علي بن أبي طالب :

يختلف الظرف الذي بويع فيه علي ﷺ بالخلافة ، وكذلك تختلف الطريقة التي بويع بها عن كل الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه ، ففي

بيعة أبي بكر لم يكن إلا يسير خلاف بين المهاجرين والأنصار ثم حسم الأمر ، وفي بيعة عمر لم يكد يوجد خلاف أصلاً ، فقد رشحه أبو بكر وعهد إليه ورضى المسلمون هذا الترشيح وعقدوا له البيعة ، وفي بيعة عثمان ، كان عمر قد وضع لهم قاعدة الاختيار ، فاختاروه بحريتهم كما مر قبل قليل . وكان أمر الأمة وشملها مجتمعين . أما على رضي الله عنه فقد بويع في ظرف بالغ الصعوبة ، فلم يتعرض المسلمون لمثله من قبل .

فمن المعروف أن عثمان رضي الله عنه قتل مظلوماً إثر فتنة عارمة ومؤامرة كبرى تولى كبرها السبئيون (١٤٣) . سجل التاريخ آثارها المشؤمة على الأمة الإسلامية ، والتي لازالت آثارها باقية إلى الآن وبعد الآن .

وسادت الفوضى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعم الناس الخوف والذعر . وظل الغافقي بن حرب ، زعيم ثوار مصر - وأحد كبار زعماء الفتنة والذين خططوا ونفذوا قتل عثمان ، ظل يصلي إماماً بالناس خمسة أيام في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والناس بدون إمام - أي بدون خليفة - والثوار - الذين قتلوا عثمان - لم يكن في وسعهم أن يقيموا خليفة منهم ، لأنهم يعلمون أن هذا الأمر يخص المهاجرين وحدهم ، فأخذوا يعرضون الخلافة على كبار الصحابة ، على بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ولكن هؤلاء جميعاً رفضوا و أعرضوا عنها (١٤٤) ، لصعوبة الموقف وضخامة المسؤولية ، ولكن في هذا الجو العصيب ، الذي اضطربت فيه سفينة الأمة وماجت بها الأنواء ، وعصفت بها الرياح ، كان لابد من قائد شجاع يتقدم ليحمل الراية . وينقذ الأمة من هذه الفوضى ، فاتجهت الأنظار إلى علي رضي الله عنه ، وتركز فيه الأمل . فذهب إليه وفد من كبار الصحابة ، من المهاجرين والأنصار ، فيهم

طلحة والزبير ، وألحوا عليه إلحاحاً شديداً ليقبل الخلافة ، وقد قبلها تحت هذا الإلحاح وبايعوه ، ولا شك أن قبول علي للخلافة في ذلك الظرف يعتبر تضحية كبيرة منه ، وضرباً من الفروسية ، لا يقدر عليه غيره ، فهو أعلى الصحابة قدراً بعد الخلفاء الثلاثة [١٤٥] .

كان من المأمول أن تنهي بيعة علي - حتى ولو كانت بدون إجماع ، فالإجماع ليس شرطاً في عقد البيعة [١٤٦] - حالة الفوضى والاضطراب الذي ساد المدينة عقب مقتل عثمان ، وأن تستأنف الأمة مسيرتها ، لكن الأحوال تطورت إلى أسوأ ، وحدثت حروب أهلية ، اخطرها وأشدها هولاً ، حرب الجمل بين علي من ناحية ، والسيدة عائشة وطلحة والزبير من ناحية ، وحرب صفين ، بين علي ومعاوية ، والتي راح ضحيتهما عشرات الألوف من المسلمين [١٤٧] . وفي النهاية تآمر الخوارج - الذين كانوا من إفرازات تلك الحروب - على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، وتشاء إرادة الله أن ينجو كل من معاوية وعمرو من القتل ، وأن يقتل علي ﷺ شهيداً علي يد عبد الرحمن بن ملجم في رمضان سنة ٤٠هـ .

خلافة الحسن بن علي :

كانت الطعنة التي وجهها الشقي بن ملجم إلى الإمام قاتلة ، وتيقن الناس أن لا أمل في حياته ، فدخل عليه أحد أنصاره ، جندب بن عبد الله ، فسأله قائلاً « يا أمير المؤمنين إن فقدناك - ولا نفقدك - فنبايع للحسن ، فقال : ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر » [١٤٨] ، وهذه الإجابة من علي ﷺ ، من أقوى البراهين على بطلان مزاعم الشيعة بأن النبي ﷺ ، قد أوصى بالخلافة لعلي ولبنيه من بعده ، فلو كانت هذه الوصية المزعومة حقاً ، لما كان هناك داع لهذا السؤال أصلا ، ولكان علي

ﷺ من تلقاء نفسه أوصى بها لابنه ، لأن هذا واجب عليه لو كانت هناك وصية .

على كل حال ترك علي أمر الخلافة للمسلمين يختارون له من يشاؤون ، ومن يرونه أصلح لحمل المسؤولية ، على قاعدة الشورى التي رسخها الخلفاء الثلاثة قبله ، وبعد وفاته بايع أنصاره ابنه الحسن بالخلافة فعلاً وكان أول من بايعه ـ فيما يروى الطبري ـ قيس بن سعد بن عبادة ، وقال له : « أبسط يدك أبايعك على كتاب الله ، عز وجل ، وسنة نبيه ، وقتال المحلين ، فقال له الحسن ﷺ ، على كتاب الله ، وسنة نبيه ، فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط ، فبايعه ، وسكت ، وبايعه الناس » (١٤٩) .

وقد فهم بعض الناس من تحفظ الحسن على قول قيس : وقتال المحلين ، أنه راغب عن قتال معاوية ، ولعله كان يرى عدم جدوى ذلك ، فالحسن في الواقع كان ضد فكرة الاقتتال من البداية ، فعندما عزم أبوه ﷺ على الخروج إلى البصرة ، قبل موقعة الجمل ، للقاء السيدة عائشة ، وطلحة والزبير ﷺ ، كان من رأيه ألا يخرج أبوه من المدينة ، خوف القتال وسفك الدماء (١٥٠) . والآن بعد مقتل أبيه زادته الأحداث والأهوال التي رآها وشهدها بنفسه ، من خسائر في الأرواح ، في الجمل وصفين ، والنهروان ، زهداً في القتال . كما أنه رأى الأحداث قد غلبت والده ﷺ ـ وهو من هو فضلاً وشجاعة وهيبة ـ من جراء خذلان أهل العراق له ، وضيقه بهم ، فاقتنع هو نفسه بأن هؤلاءالناس لا يمكن الاعتماد عليهم . كما أنه رأى كفة معاوية تزداد رجحاناً بعد مقتل أبيه ، فاستخلص من ذلك كله أن صلاح أحوال الأمة الإسلامية ، وجمع كلمتها وتوحيد صفوفها ليس في مزيد من القتال وسفك الدماء ، وإنما في المصالحة والألفة وكان هذا عين الصواب والحكمة والواقعية

السياسية ، وسداد الرأي . وبدأ الاتصال بمعاوية للاتفاق على شروط المصالحة ، فاستقبل هذا الاتجاه بسرور بالغ ، ويروي الطبري أنه من فرط سروره أرسل إلى الحسن صحيفة بيضاء ، عليها خاتمه في أسفلها ، ليكتب فيها ما شاء من الشروط (١٥١) ، وسارت الأمور سيراً حسناً ، واتفق على شروط الصلح ، وجاء معاوية إلى الكوفة واستقبله الحسن والحسين ﷺ وبايعاه وبايعه الناس ، في الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٤١هـ . واستبشر المسلمون خيراً بخبر تلك المصالحة ، وحمدوا الله تعالى على انتهاء عهد الفتن والحروب وسفك الدماء ، وسمُّوا ذلك العام ، عام الجماعة .

وبهذا قامت الدولة الأموية رسمياً ، وأصبح معاوية ﷺ خليفة للأمة كلها ، ولقب بأمير المؤمنين ، وكان قبل ذلك يلقب بالأمير فقط (١٥٢) .

وكان صدى ما صنعه الحسن ﷺ طيباً عند جمهور المسلمين ، فقد أثنى عليه كثير من علماء أهل السنة ، ورأوا فيما أقدم عليه تصديقاً لنبوءة جده ، محمد عليه الصلاة والسلام ، الذي قال عنه : « ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (١٥٣) .

وهذا يبين أن الإصلاح بين الطائفتين ـ بفضل الحسن ، الذي تنازل عن الخلافة ، رغم انعقاد بيعته وأهليته لها مؤثراً سلامة المسلمين ـ كان عملاً محموداً ، يحبه الله ورسوله ، فقد أثنى الرسول على صنع الحسن ، واعتبره العلماء من أعظم مناقبه وفضائله ، ولو كان القتال واجباً أو مستحباً ، لما أثنى النبي ﷺ ، على ترك واجب أو مستحب (١٥٤) .

وبهذا العمل الشجاع أنهى الحسن ﷺ فترة مؤلمة وحزينة من

تاريخ المسلمين ، وأعاد للأمة وحدتها وسكينتها ، وكان مستريح الضمير مطمئن القلب ، قرير العين بما فعل ، ولم يعبأ بسفه الشيعة العراقيين وانتقاداتهم الحمقاء لمسلكه ، فقد سبوه ووصفوه بأوصاف - هو منها بريئ - فقد قالوا له : « يامسود وجوه المؤمنين» [١٥٥] ، فلم يزد على أن قال لهم : كرهت أن أقتلكم على الملك . فرحم الله الحسن ، وجزاه عن الأمة الإسلامية أحسن الجزاء .

* * *

التطور الذي أحدثه معاوية في نظام الخلافة الإسلامية

لعل أخطر تطور ، أو بمعنى أدق ، أخطر تغيير جوهري أحدثه معاوية بن أبي سفيان ، مؤسس الدولة الأموية في نظام الخلافة الإسلامية ، هو تحويلها من نظام يقوم على اختيار الخليفة اختياراً حراً من المسلمين ، أو من أهل الحل والعقد فيهم ، إلى نظام يقوم على توريث الخلافة ، من الأب لابنه ، أو من الأخ إلى أخيه أو إلى ابن عمه ... الخ ، وبهذا حصر معاوية الخلافة في أسرته السفيانية أولا ، ثم حذا حذوه الفرع المرواني ، فقد تولى الخلافة مروان بن الحكم ، بعد مؤتمر الجابية في ذي القعدة سنة٦٤هـ .

والطرق الخمس التي مرت بنا في اختيار الخليفة بدءاً من أبي بكر ﷺ ، وانتهاءاً بالحسن بن علي ﷺ ، تؤكد على أن اختيار الخليفة كان يتم إما عن طريق الترشيح إبتداءً ، أي أن أحداً يرشح أحداً ، ثم تبايع الأمة بعد ذلك ، كما حدث في بيعة أبي بكر ، حيث رشحه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح في سقيفة بني ساعده ، ثم بايعه المسلمون البيعة العامة في اليوم التالي في مسجد رسول الله ﷺ ، فرغم أن عمر وأبا عبيدة بايعا أبا بكر ، وبايعه الحاضرون في السقيفة (١٥٦) ، إلا أن ذلك اعتبر مجرد ترشيح لا تنعقد به البيعة (١٥٧) ، ولم يعتد به الصحابة أنفسهم الذين قاموا به ، إذ لو كانوا قد اعتدوا به لماكان هناك ضرورة لبيعة عامة أخرى في مسجد الرسول ﷺ ، هي التي جعلت خلافة أبي بكر خلافة شرعية ، هذه هي الطريقة الأولى ، وهي أن يقوم واحد أو أكثر بترشيح واحد ، ثم تبايعه الأمة فتصبح بيعته شرعية ملزمة للجميع .

الطريقة الثانية ، أن يعهد الخليفة القائم إلى شخص يتولى الخلافة

بعده ، كما حدث من أبي بكر لعمر بن الخطاب ، كما سبق ذكره ، وهذا العهد ، كان أيضاً بمثابة ترشيح ، والفرق بينه وبين الطريقة السابقة أنه جاء من الخليفة نفسه ، ورغم أن أبا بكر استشار كبار الصحابة في عمر وأن أغلبيتهم وافقت على اختياره ، إلا أن ذلك كله لم يكن كافياً في انعقاد البيعة لعمر ، بل كان لابد من بيعة عامة ، هي التي جعلت خلافته شرعية ملزمة « ولو لم يرضوه وبايعوا غيره ما كان عهد أبي بكر حجة عليهم » [١٥٨] .

ونستطيع أن نقول مثل ذلك في قصة السته الذين رشحهم عمر ليختاروا واحداً منهم ، فعمله هذا مجرد ترشيح ، وقد قام عبد الرحمن ابن عوف بترشيح واحد منهم للخلافة ، وهو عثمان بن عفان ﷺ وطلب من المسلمين بيعته ، فبايعوه ، أي وافقوا على ترشيح عبد الرحمن لـه ، فبيعة عثمان لم تقم وتنعقد إلا بالبيعة العامة [١٥٩] .

وكذلك كان الأمر في بيعة علي ﷺ ، فبعد الأحداث الدامية التي راح ضحيتها الخليفة عثمان ﷺ ، رشح بعض الصحابة علياً وبايعوه ، فانعقدت له البيعة لا بمجرد الترشيح ولكن بالبيعة من عدد كبير من الصحابة . وقل مثل ذلك في أمر بيعة الحسن ، ﷺ ، فأنصار أبيه هم الذين رشحوه بعد وفاة أبيه وبايعوه ، فانعقدت له البيعة بمبايعتهم .

« وهكذا نرى من دراسة الوقائع التي تمت بها تولية كل من الخلفاء الراشدين الأربعة ـ وكذلك الحسن بن علي ـ دراسة تحليلية أن تولية الخليفة لا تتم إلا بالبيعة عن رضا واختيار ، وأن عهد الخليفة السابق ليس إلا ترشيحاً لمن يراه أهلاً للخلافـة ، فإن وافقت الأمـة على ترشيحه بايعوه ، وإلا كان لهم أن يبايعوا غيره » [١٦٠] .

والملاحظة الهامة هنا ، والتي يجب أن توضع في الاعتبار عند الكلام على ما فعله معاوية من العهد لابنه وأخذ البيعة له ، تلك الملاحظة هي أن أياً من الخلفاء الراشدين الأربعة لم يفكر مجرد تفكير في العهد لأحد من أبنائه أو أقربائه ، ولعلهم قصدوا إبعاد فكرة الوراثة إبعاداً تاماً عن الاختيار ، ولم تكن خطورة ذلك الأمر غائبة عن أذهانهم ، ولذلك رأينا أبا بكر عندما رشح عمر بن الخطاب يقول لهم في وضوح وصراحة ذات مغزى : « أترضون بمن استخلف عليكم ، فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ، ولا وليت ذا قرابة ، وإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا ، فقالوا ! سمعنا وأطعنا » [١٦١] ، فتأمل قول الصديق « ولا وليت ذا قرابة » . ورأينا عمر بن الخطاب يستبعد ابن عمه ؛ سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل من أهل الشورى مع أن الشروط تنطبق عليه ، فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، والذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضي ، وذلك دفعاً لشبهة القرابة ، هذا فضلاً عن أن عمر ، ﷺ رفض رفضاً باتاً فكرة تولية إبنه عبد الله بل وبّخَ من اقترح عليه ذلك ، كل ذلك إبعاداً لشبهة الوراثة .

وعثمان لم يؤثر عنه شئ من ذلك البتة . أما على ﷺ فقد سبق أن ذكرنا رأيه في أمر تولية ابنه الحسن ، وقوله لأصحابه عندما عرضوا عليه فكرة بيعته بعده : « لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر» .

معاوية وولاية العهد لابنه يزيد

قلنا فيما سبق إن أخطر تغييرأدخله معاوية على نظام الخلافة ، هو عملية توريثها لابنه يزيد ، وقد يكون ما فعله سليماً من الناحية الشكلية ، فهو قد صنع مثلما صنع أبوبكر حيث عهد إلى عمر ، ،ومثلما صنع عمر عندما رشح أهل الشورى ، فقد عهد معاوية لإبنه وأخذ له البيعة ، لكن

خطورة ذلك أن العهد كان لابنه بالذات ، وهذا هو الذي أدى إلى الانقسامات والفتن والحروب فيما بعد بين الأمويين والخوارج ، وبينهم وبين الزبيريين وغيرهم ، ولو أن معاوية عهد لأحد غير ابنه ، وحذا حذو أبي بكر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم أجمعين - في استبعاد أبنائهم وأقربائهم لربما كان قد جنب الأمة كثيراً من المشاكل والمصاعب ، ويرى البعض أنه كان في إمكانه أن يجتهد ويستخدم خبرته وذكاءه ويختار رجلاً غير ذي قرابة من أفضل الرجال ، وكانوا كثيرين ، وأن يتجرد من عاطفة الأبوة ، ولو فعل ذلك لما اعترض عليه أحدا (١٦٢) ، فالاعتراضات جاءت لا من حيث العهد في حد ذاته وإنما من كونه لابنه بالذات ، خصوصاً وأن ابنه يزيد لم يكن أفضل الصالحين للخلافة حينئذ . ولكن البعض الآخر يرى أن معاوية كان مضطراً إلى ذلك ، فبعد التجارب التي مرّ بها المسلمون ، والاختلافات التي حدثت بشأن الخلافة ، رأي أن المصلحة تقتضي أن يعهد لشخص معين بالخلافة بعده ، لتستقر الأمور ، وينحسم الخلاف ، ورأى أنه لو عهد لأحد من غير بني أمية لحدث ما كان يخشاه من الخلاف ، لأنهم لن يسلموا بها لأحد غيرهم ، وعلى رأس هذا الفريق الذي يصوب عمل معاوية ابن خلدون ، فقد قال في هذا الصدد : « والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس ، واتفاق أهوائهم ، باتفاق أهل الحل والعقد حينئذ من بني أمية ، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم ، وهم عصابة قريش ، وأهل الملَّة أجمع وأهل الغلب منهم ، فآثره بذلك دون غيره ، ممن يظن أنه أولى بها ، وعدل عن الفاضل إلى المفضول ، حرصاً على الاتفاق ، واجتماع الأهواء ، الذي شأنه أهم عند الشارع ، وأن كان لا يظن بمعاوية غير هذا ، فعدالته وصحبته مانعه من سوى ذلك ، وحضور أكابر الصحابة لذلك ، وسكوتهم عنه دليل

على انتفاء الريب فيه ، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة ، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق ، فإنهم كلهم أجل من ذلك ، وعدالتهم مانعة منه » (١٦٣) .

هذا هو رأي ابن خلدون في القضية ، ويبدو أن الواقع يؤيده وحوادث التاريخ اللاحقة تعضده ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

منها أنه عندما توفي يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ ، وعجز ابنه وولي عهده معاوية عن حمل أعباء الخلافة ، ورفض تقلدها عندئذ كان عبد الله بن الزبير قد دعا إلى نفسه في مكة ، وبايعه أهل الحجاز بالخلافة ، وتقاطرت عليه بيعات أهل الأمصار ، من مصر والعراق ، وحتى بعض أقاليم الشام ، ودخلت معظم أقطار الدولة في خلافته ، إلا أن الأمر لم يتم له ، وتغلَّب عليه بنو أمية وأنصارهم في نهاية الأمر ، بعد حروب مريرة راح ضحيتها عشرات الألوف من المسلمين .

ومنها أن عمر بن عبد العزيز كان قد فكر في صرف الخلافة عن ولي عهده وابن عمه يزيد بن عبد الملك ، لاقتناعه بعدم صلاحيته للخلافة بعده ، وكان ممن فكر عمر في ترشيحهم للخلافة بعده سالم ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، ولكنه لم يستطع أن يعهد لواحد منهما ، وينزعها من ابن عمه يزيد ، وذلك لمعارضة بني أمية له (١٦٤) . وخوفه من الفتنة فكان إذا رأى محمد بن القاسم ، يقول : « لو كان لي من الأمر شيء لوليته الخلافة » (١٦٥) ، ولا يستطيع أحد أن يطعن في نزاهة عمر وعدله وتقواه ، ولكن مراعاة المصحلة العامة وجمع كلمة الأمة لها الاعتبار الأول عنده ، لأنه لو حاول أن يصرف الأمر عن بني أمية لوقعت الفرقة في الأمة من جديد .

أكثر من هذا فإن سليمان بن عبد الملك ، عندما عهد لعمر بن عبدالعزيز نفسه لما رأى فيه من الصلاح والتقوى وتحري العدل متخطياً بذلك إخوته من أبناء عبد الملك ومتغلباً على هواه فيهم ، فإنه لم يجرؤ علي ذلك إلا بعد أن جعل أخاه يزيد بن عبد الملك ولياً للعهد بعد عمر ، وذلك ليضمن سكوت إخوته ، وعدم إثارتهم للفتن ، مع أن عمر ابن عمهم ، وزوج أختهم ، ولكنهم لم يقبلوا أن تخرج منهم إلى ابن عمهم إلا بعد أن علموا أنها ستعود إليهم بعده في شخص أخيهم يزيد (١٦٦) ، وحتى هذا الحل لم يقبلوه إلا بعد ضغوط شديدة ، وتهديد لهم من جانب رجاء بن حيوة بالقتل إن هم أقدموا على إحداث فتنة (١٦٧) .

كل ما تقدم قد يكون مؤيداً لرأي ابن خلدون ، في أن عمل معاوية كان ضرورة ، من ضرورات السياسة والاجتماع ، وأن كنا نميل إلى الرأي الأول ، وهو أن معاوية ، لو استخدم نفوذه وكرّسه لاختيار واحد من أفضل الناس الموجودين للخلافة ، ورمى وراءه بكل ثقله ، لكان أفضل ، ولكن هذا ما حدث . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

فقد استقر الأمر على توريث خلفاء بني أمية الخلافة لِمَن بعدهم ، سواء أكان ابناً أم أخاً ، ولم يكن الواحد منهم يكتفي بتولية العهد لواحد فقط . بل درجوا على توليته أكثر من واحد ، وقد بدأ هذا التقليد مروان ابن الحكم حيث ولّى عهده ولديه؛ عبد الملك وعبد العزيز ، وحذا حذوه من جاؤا بعده . وقد جرّ هذا عليهم مصاعب ومشاكل كثيرة ، أدت إلى صراع داخلي بين أبناء الأسرة الأموية ، كان من أهم أسباب تدهور أحوالهم ، وسقوط دولتهم في نهاية الأمر .

ومع استقرار الأمر عمليا على التوريث ، إلا أنهم حافظوا من حيث الشكل على نظام البيعة ، أي أن الخليفة القائم كان يعهد من بعده

لابنه أو أخيه ، أو آخر من ذوي قرابته ، ثم تؤخذ البيعة لمن صدر له كتاب العهد في حياته ثم تجدد له بعد وفاته .

« ومعنى هذا أنهم كانوا يعرفون تماماً أن مجرد العهد ليس ملزماً شرعاً ، بل لابد من البيعة العامة بعده » (١٦٨) .

* * *

التطور الذي أدخله الأمويون على الخلافة من حيث الشكل والمظهر

حياة الخلفاء الراشدين ومظهرهم :

كان الخلفاء الراشدون يحيون حياة غاية في البساطة ، من حيث المأكل والملبس والمسكن ، وإن كان الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، ﷺ قد توسع شيئًا ما في مأكله وملبسه ، لأنه كان موسراً ذا مال كثير ، إلا أنه لم يخرج عن حد القصد والاعتدال (١٦٩) .

فهذا أبو بكر ﷺ ، يذهب غداة إستخلافه إلى السوق ليتاجر ويبيع ويشتري ، فيلقاه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، فيسألانه ، أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السوق ، قالا : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ قالا له : انطلق حتى نفرض لك شيئًا . . . ففرضوا له ألفي درهم في السنة فقال : زيدوني ، فإن لي عيالا ، وقد شغلتموني عن التجارة ، فزادوه خمسمائة . ويقول راوي الخبر ، إما أن تكون الفين فزادوه خمسمائة ، أو كانت الفين وخمسائة فزادوه خمسمائة (١٧٠) .

ولا يعنينا تحقيق هذه الروايات لنعرف بالدقة كم جعلوا لأبي بكر ﷺ ، ولكن الذي يعنينا هنا هو بيان أن المسلمين وضعوا هذا المبدأ ، أي تقرير راتب للخليفة يكفيه هو وأهله ، حتى يتفرغ لخدمة الأمة وإدارة شؤونها ، وهذا ما نأخذه بيقين ، مما رواه ابن سعد وغيره من ثقات المؤرخين (١٧١) ، ولم يجعل للخليفة أي إمتياز آخر .

هذه هي كل مخصصات الخليفة ، التي قررها له المسلمون في بيت المال ، وحتي هذا القدر القليل لم ترض نفس أبي بكر أن يفارق الدنيا

قبل أن يوصى بنيه بإحصائه ورده إلى بيت مال المسلمين ، وكره ان يأخذ أجراً على عمله ، وأراده أن يكون حسبة لله تعالى وقال : «ردوا ما عندنا من مال المسلمين ... وإن أرضي التي بمكان كذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم» واستخلص عمر بن الخطاب ثمن هذه الأرض ، ورده إلى بيت المال تنفيذاً لأمر أبي بكر ، وجعل يقول : « رحم الله أبا بكر ، لقد أحب ألا يجعل لأحد بعده مقالا » (١٧٢) .

أما عمر نفسه ، فيروى أن الصحابة ، رضوان الله عليهم تساءلوا وهو بينهم عما يحل له من مال المسلمين ، فقال هو نفسه : أنا أخبركم بما أستحل منه ، يحل لي حلتان ، حلة في الشتاء وحلة في الصيف ، وما أحج عليه ، واعتمر من الظهر ، وقوتي وقوت أهلي ، كقوت رجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا أفقرهم ، ثم بعد أنا رجل من المسلمين ، يصيبني ما أصابهم (١٧٣) .

وفي رواية أخرى أنه قال : « إني كنت أمرأ تاجراً ، وقد شغلتموني بأمركم هذا ، فما ترون أن يحل لي من هذا المال ؟ فأكثر القوم ، ـ وعلى إبن أبي طالب ـ ساكت ، فقال : يا علي ما قولك ؟ قال : ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ، ليس لك من هذا المال غيره ، فقال : القول ما قال علي » .

لا نريد أن نسترسل في ذكر مخصصات بقية الخلفاء الراشدين ، فروايات المؤرخين متواترة على أنها كانت مخصصات تفي بحياة عادية ليس فيها ترف ولا سرف ، والأهم من هذا أن أحداً منهم لم تمتد يده إلى بيت المال ، ولو إلى درهم واحد ، فرضى الله عنهم جميعاً .

ولقد كان زهدهم في المال ، وبعدهم عن زخرف الدنيا مع قدرتهم

عليها ، مثار إعجاب الكتاب غير المسلمين ، يقول نولدكة في عمر بن الخطاب : « إنه كان وهو في مقره بالمدينة ، يدير حركة الجيوش العربية الفاتحة ، وكان يعيش حياة بسيطة متواضعة ، تثير الإعجاب حقاً ، بينما كانت الفتوح العربية تدر على بيت المال الغنائم الوفيرة ، والثروات الطائلة ، والأموال العظيمة ، فلا يأبه لها ، ولا يكاد يرمقها ، وهذه ظاهرة فريدة في تاريخ العباقرة تدل على أن عمر بن الخطاب كان فذاً بين الرجال الأبطال » (١٧٤) .

وكتب التاريخ زاخرة بالروايات ، عن مأكل عمر وملبسه ومركبه ، وما كان عليه كل ذلك من البساطة . مما قد يظنه البعض من باب المبالغة ، ولكنها الحقيقة ، فعمر أخذ نفسه أن يحيا حياة عامة المسلمين (١٧٥) ، وكذلك أولاده وأسرته ، فلم يتميزوا على سائر الرعية بأمر من الأمور ، بل كان أحياناً يقسو عليهم أكثر من غيرهم ليتحقق فيهم القدوة لبقية الناس ، لأن كل العيون تتطلع إليهم . كما قال هو نفسه . وكان علي بن أبي طالب يسير على درب عمر في زهادته في الطعام والشراب ونزاهته عن أموال المسلمين ، وكان يقول : « يا صفراء ويا بيضاء - يقصد الذهب والفضة - غري غيري » (١٧٦) ، ولم يكن يسمح لدرهم واحد من مال المسلمين أن يذهب في غير حقه ، وقصته مع أخيه عقيل مشهورة ، فعندما طلب منه مالا لتسديد دين عليه ، رفض على أن يعطيه أي شيء من بيت مال المسلمين بدون وجه حق ، فغضب عقيل منه وانضم إلى صفوف خصمه السياسي ، معاوية بن أبي سفيان .

والحق أن علياً ﷺ لم يسمح لنفسه أن يستخدم أموال المسلمين في تأليف الأنصار ، كما صنع معاوية ، ولو فعل علي مثل معاوية فربما كان قد تغير الموقف بينهما تماماً .

وهناك حكمة قديمة ومشهورة تقول :

الناس على دين ملوكهم ، تلك حقيقة أزلية أثبت التاريخ صحتها ولا يزال . والخلفاء الراشدون لم يكونوا ملوكاً ، وإنما كانوا خلفاء النبي ﷺ ، في شؤون الدين والدنيا ، فسرت روحهم ومسلكهم وبساطتهم في الحياة في سائر الرعية ، خاصة في الصحابة ، فكان معظمهم يعيش حياة القصد والاعتدال وكانوا بعيدين عن الترف والإسراف .

رغم كثرة الأموال لديهم ، كثرة هائلة ، وهي أموال كلها حلال . جاءتهم من الغنائم والفيوء .

يقول ابن خلدون : « حتى إذا اجتمعت عصبية العرب على الدين ، بما أكرمهم الله من نبوة محمد ﷺ ، وزحفوا إلى أمم فارس والروم ، وطلبوا ما كتب الله لهم من الأرض بوعد الصدق ، فابتزوا ملكهم ، واستباحوا دنياهم ، فزخرت بحار الرفه لديهم ، حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب أو نحوها ، فاستولوا من ذلك على مالا يأخذه الحصر ، وهم مع ذلك على خشونة عيشهم .. فكانت مكاسب القوم كما تراه ، ولم يكن ذلك منعيا لهم في دينهم ، إذ هي أموال حلال ، لأنها غنائم وفيوء ، ولم يكن تصرفهم فيها بإسراف ، إنما كانوا على قصد في أحوالهم ، كماقلناه ، فلم يكن ذلك بقادح فيهم ، وإن كان الاستكثار من الدنيا مذموماً ، فإنما يرجع إلى ما أشرنا إليه من الإسراف ، والخروج به عن القصد ، وإذا كان حالهم قصداً ، ونفقاتهم في سبيل الحق ومذاهبه ، كان ذلك الاستكثار عوناً لهم على طريق الحق ، واكتساب الدار الآخرة » (١٧٧) .

* * *

حياة خلفاء بني أمية ومظهرهم

لما تنازل الحسن بن علي ﷺ عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ، رضى الله عنهما ، في شهر ربيع الأول سنة ٤١ هـ - وهو عام الجماعة ، كما أشرنا فيما سبق - اتخذ من دمشق عاصمة للدولة الإسلامية ، بعد أن كانت عاصمة لإقليم الشام ، ومقر إمارة ، ودمشق هي إحدى أقدم مدن العالم ، بل يذهب البعض إلى أنها أقدم مدن العالم على الإطلاق (١٧٨)، وكانت مدينة عظيمة عامرة بالمباني الفاخرة والحدائق والبساتين ، وكان معاوية ، وهو أمير على الشام يعيش حياة بذخ وترف وأبهة ، بالقياس ، إلى حياة الخلفاء الراشدين في المدينة المنورة ، والتي سبقت الإشارة إليها . فتوسع في المأكل والمشرب والزي والمركب ، ولم ينكر عليه عمر ابن الخطاب ذلك ، ولم ينهه عنه ، عندما شرح له معاوية أسباب ذلك يقول ابن خلدون : « ولما لقي معاوية عمر بن الخطاب ﷺ عند قدومه إلى الشام ، في أبهة الملك وزيِّه ، من العديد والعدة ، استنكر ذلك وقال : « أكسرويه يا معاوية ؟! » فقال : « يا أمير المؤمنين إنَّا في ثغر تجاه العدو ، وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة » فسكت ، ولم يخطئه لما أحتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين » (١٧٩) .

فلو كان القصد رفض الملك من أصله لم يقنعه هذا الجواب في تلك الكسروية وانتحالها ، بل كان يحرص على خروجه منها بالجملة ، وإنما أراد عمر ، بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم ، من ارتكاب الباطل والظلم والبغي ، وسلوك سبله والغفلة عن الله ؛ وأجابه معاوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم ، وإنما قصده بها وجه الله ، فسكت » (١٨٠) .

وإذا كان معاوية قد أجاز لنفسه التوسع في المأكل والمشرب

والملبس والمركب والأبهة وهو أمير ، فإن ذلك سوف يزيد وتتسع دائرته بعد أن أصبح خليفة ، وستحف به مظاهر الملك من اتخاذ الحراس والشرطة والحجاب وإرخاء الستور ، ومشى حراسه بين يديه بالحراب (١٨١) ، وسكنى القصور ، ذات الحدائق الغناء ، واتخاذ القصورة للصلاة منعزلاً عن الناس . . الخ . ونظراً لهذه المظاهر قيل عن معاوية إنه كان ملكاً لا خليفة ، بل روى عنه هو نفسه أنه قال : « أنا أول الملوك » (١٨٢) ، وروى عن ابن عباس أنه وصف معاوية بأنه كان ملكاً ، وكذلك كان يرى ابن تيمية ، فقد قال في منهاج السنة (١٨٣) ، فلم يكن من ملوك المسلمين ملك خيراً من معاوية ، ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خير منهم في زمن معاوية ، إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده ، أما إذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل » .

بل يروى عن الرسول ﷺ ، ما يؤيد أن حكم معاوية كان بداية الملك في الإسلام ، فقد ذكر ابن كثير أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة ، ثم يكون رحمة وخلافة ، ثم كائن ملكاً عضوضاً » (١٨٤) ، وروى أنه ﷺ قال : الخلافة بعدي ثلاثون عاماً ثم تكون ملكاً عضوضا » (١٨٥) ، ولو سلمنا بهذا فإن الإسلام ذاته لا يهمه الإسم الذي يسم به الحاكم ، خليفة أم ملك ، إنمايهمه أن يحكم بشريعة الإسلام ، ثم إن الملك لا يذم لذاته ، وإنما يذم لما يحف به من المظالم والطغيان أما إذا كان بالحق وللحق فلايذم ولذلك تمناه سليمان عليه السلام فقال : « رب اغفرلي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » (١٨٦) . ولذلك يقول العلامة ابن خلدون : « .. وكذلك الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ، ومراعاة المصالح ، وإنما ذمه لما فيه من التغلُّب بالباطل ، وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات ، كما قلناه ، فلو كان الملك مخلصاً في غلبه

للناس ، أنه لله ، ولحملهم على عبادة الله ، وجهاد عدوه ، لم يكن ذلك مذموماً » (١٨٧) ، فمعاوية وإن كان ملكاً ، فهو خير ملوك الإسلام ، كما قال الإمام ابن تيمية ، ويكاد ينعقد إجماع علماء الأمة من الصحابة والتابعين ، ومن تلاهم على الثناء عليه ، والاعتراف بكفاءته وجدارته بالحكم ، وحسن سياسته ، وعدله ، وأنه لم يحد عن أصول ومقررات الشريعة الإسلامية ومقاصدها العليا في إدارته للدولة الإسلامية (١٨٨) .

لذلك اعترف أهل السنة بخلافته . بل إن حياة الترف التي كان يحياها ، وجاراه فيها الأمراء والولاة ، وأثرياءالأمة ، كانت من مقتضيات التطور الاجتماعي ، وكثرة الأموال لديهم ، وهو تطور طبيعي في حياة الأمم ، ولم يكن في وسع أحد إيقافه . وهذا الترف يراه ابن خلدون مطلوباً للدولة في أولها لأنه يزيدها قوة إلى قوتها ، عكس الترف الذي يستشرى فيها بعد عصر التأسيس ، فإنه يؤدي إلى الهرم . ولقد عقد ابن خلدون فصلاً في المقدمة عنوانه : « فصل في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها » .

« والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف ، كثر التناسل والولد والعمومية ، فكثرت العصابة ، واستكثروا أيضاً من الموالي والصنائع ، وربيت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه ، فازدادوا بهم عدداً إلى عددهم ، وقوة إلى قوتهم ، بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد ، فإذا ذهب الجيل الأول والثاني ، وأخذت الدولة في الهرم ، لم يستقل أولئك الصنائع والموالي بأنفسهم ، في تأسيس الدولة ، وتمهيد ملكها ، لأنهم ليس لهم من الأمر شيئ ، إنما كانوا عيالاً على أهلها ، ومعونة لها ، فإذا ذهب الأصل لم يستقل الفرع بالرسوخ ، فيذهب ويتلاشى ، ولاتبقى الدولة على حالها من القوة . واعتبر هذا بما وقع في

الدولة العربية في الإسلام ، كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفاً أو ما يقاربها ، من مضر وقحطان ، ولما بلغ الترف مبالغه في الدولة ، وتوفر نموهم بتوفر النعمة ، واستكثر الخلفاء من الموالي والصنائع ، بلغ ذلك العدد أضعافه » (١٨٩) .

لقد أصاب ابن خلدون كبد الحقيقة بقوله هذا ، فإن معاوية ومن تلاه من الأمويين الأوائل ، استخدموا الأموال في تأليف الناس حولهم ، واستكثروا من الذرية والموالي والصنائع لترسيخ قواعد الدولة ، حتى بلغت أوج قوتها . يقول ابن طباطبا :« وأما معاوية ﷺ ، فكان عاقلاً في دنياه لبيباً حليماً ، ملكاً قوياً ، جيد السياسة ، حسن التدبير لأمور الدنيا ، عاقلاً حكيماً فصيحاً بليغاً ، يحلم في موضع الحلم ، ويشتد في موضع الشدة ، إلا أن الحلم كان أغلب عليه ، وكان كريماً باذلاً للمال ، محباً للرياسة ، شغوفا بها ، كان يفضل على أشراف رعيته كثيراً ، فلا يزال أشراف قريش ، مثل عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن جعفر الطيار ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأبان ابن عثمان بن عفان ، وناس من آل أبي طالب ﷺ يفدون عليه بدمشق ، فيكرم مثواهم ، ويحسن قراهم ، ويقضي حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ، ويجبهونه أقبح الجبه ، وهو يداعبهم تارة ، ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعدهم إلا بالجوائز السنية ، والصلات الجمة (١٩٠) . ويقول : « ـ بمثل هذه السياسة ـ صار خليفة العالم ، وخضع له أبناء المهاجرين والأنصار ، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة » (١٩١) .

فلا عجب إذن أن نرى الصحابة الذين امتنعوا عن بيعة علي بن أبي طالب ﷺ ، مثل سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر بن

الخطاب ، وعبد الله بن الزبير ، وغيرهم ، قد بايعوا معاوية ، ورضوا خلافته ، يقول الإمام الحافظ الذهبي : « وخلف معاوية خلق كثير يحبونه ويتغالون فيه ويفضلونه ، إما قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء ، وإما قد ولدوا في الشام على حبه ، وتربى أولادهم على ذلك ، وفيهم جماعة يسيرة من الصحابة ، وعدد كثير من التابعين والفضلاء » (١٩٢) .

وحذا يزيد بن معاوية حذو أبيه في الإحسان إلى الناس ، واستمالتهم بالأموال ، وكذلك فعل مروان بن الحكم ، وابنه عبد الملك وأولاده ، فمع أنهم كانوا يعيشون حياةالترف والسعة ، وتأليف الأتباع بالأموال ، إلا أنهم كانوا متحرين للحق والعدل ، ومحافظين على مقررات الشريعة ، يقول ابن خلدون (١٩٣) : « وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه ، وإن كانوا ملوكاً ، فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي وإنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم ، إلا في ضرورة تحملهم على بعضها ، مثل خشية افتراق الكلمة ، الذي هو أهم لديهم من كل مقصد ، يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء ، وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم ، فقد احتج مالك ـ ابن أنس ـ في الموطأ بعمل عبد الملك ، وأما مروان ، فكان من الطبقة الأولى من التابعين ، وعدالتهم معروفة ، ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك ، وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه ، وتوسطهم عمر بن عبد العزيز ، فنزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة جهده ، ولم يهمل ، ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ، ومقاصدهم ، ونسوا ما كان عليه سلفهم ، من تحري القصد فيها ، واعتماد الحق في مذاهبها ، فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نعوا عليهم أفعالهم ، وأدالوا بالدعوة العباسية منهم » .

فالترف والسخاء بالأموال ، تأليفاً للرجال والاتباع ، الذي كان في أول الدولة عامل قوة ، يزيد الدولة قوة على قوتها ، على أيدي خلفائها الأوائل الذين كانوا يتحرون الحق والعدل ، قدر طاقتهم ، حسب رأي ابن خلدون ، سوف يصير في آخرها عامل ضعف وتوهين وهدم ، لأن الخلفاء الأواخر ، استخدموا الترف والأموال في أغراضهم الشخصية ، وعموا عن مصالح الأمة ، وأهملوا مقاصد الشريعة فكانت النهاية المحتومة ، وقد فطن إلى ذلك الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ، فقال : « ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان ، يحوطونه ، ويصونون ما وهب الله لهم منه ، مع تسنمهم معالي الأمور ، ورفضهم دنياتها ، حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين ، فكانت همتهم قصد الشهوات ، وركوب الملذات من معاص الله ، جهلاً باستدراجه وأمنا لمكره ، مع إطراحهم صيانة الخلافة ، واستخفافهم بحق الرياسة ، وضعفهم عن السياسة ، فسلبهم الله العز ، وألبسهم الذل ، ونفى عنهم النعمة » (١٩٤) .

وتمدنا المصادر التاريخية أن معظم خلفاء بني أمية الأوائل رغم استخدامهم الأموال لتأليف الناس وجمع الأنصار ، توطيداً لأركان الدولة ، وإشاعة الأمن والاستقرار في ربوعها ، إلا أنهم كانوا حريصين بصفة عامة على الإلتزام ، بعدم التجاوز في جمع الأموال ، التي اشتدت حاجتهم إليها ، فهذا معاوية بن أبي سفيان عندما أراد ، وهو خليفة أن يزيد على أهل مصر فوق ما فرضته عليهم معاهدات الصلح ، فإذا بعامله على الأموال ، وردان ، يقول له : كيف تزيد عليهم يا أمير المؤمنين ، وفي عهدهم ألا يزاد عليهم» فيكف الخليفة ويذعن لرأى عامله ، وعندما اشتدت الحاجة إلى الأموال ، وانسقط بعض ولاة بني أميه وعمالهم ، واستمروا يأخذون الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ، وجد هذا الإجراء

مقاومة شديدة من صلحاء المسلمين . وأثار سخطهم ، لمخالفته لأصول ومقررات الشريعة الإسلامية التي تقضي بعدم أخذ الجزية من المسلم ، فها هو ابن حجيرة ، يقول لعبد العزيز بن مروان ، أمير مصر (٦٥ - ٨٥هـ) عندما أراد أن يأخذ الجزية ممن أسلموا من أهلها : « أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر ... فتركهم عند ذلك » (١٩٥) . وظلت معارضة العلماء والصلحاء لهذا الإجراء ، حتى جاء الخليفة العظيم عمر بن عبد العزيز ، وألغى ذلك ، وصاح صحيته الخالدة ، في وجوه العمال « قبّحَ الله رأيكم فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً » .

وتمدنا المصادر التاريخية كذلك بمعلومات وفيرة على حرص معظم خلفاء بني أمية على إقامة العدل بين الناس ، فقد ذكر عمر بن عبد العزيز عند الأعمش ، كمثال على العدل ، فقال :« فكيف لو أدركتم معاوية ؟ قالوا : « في حلمه - كأنهم يستغربون أن يقرن معاوية بعمر بن عبد العزيز في العدل - ولكن الأعمش قال لهم : لا والله في عدله » (١٩٦) .

وهذا هو الوليد بن عبد الملك يعتذر له أحد الولاة بأنه لم تتبقَّ لديه أموال ، من إيرادات ولايته يرفعها إليه ، لأن نفقات الولاية أتت على كل الموارد ، فيقول الخليفة الوليد للوالي :« أجر العدل بين الناس ، ولو لم ترفع إلينا درهما واحداً» ومعظم خلفاء بني أمية كانوا يحرصون على أن تكون الأموال التي تدخل بيت المال ، من مختلف الولايات والجبايات ، كلها أموال حلال ، يقول صاحب كتاب أخبار مجموعة ، إن الخلفاء الأمويين ، كانت إذا جاءتهم جباية الأمصار والآفاق ، يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال ، من وجوه الناس ، وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال

من الجباية ، دينار ولا درهم ، حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ، ما فيها دينار ولا درهم ، إلا أخذ بحقه ، وإنه فضل أعطيات أهل البلد ، من المقاتلة والذرية ، بعد أن أخذ كل ذي حق حقه ، فلما وفدوا بخراج إفريقية في زمن سليمان بن عبد الملك ، أمروا - أي العشرة رجال - أن يحلفوا ، فحلف ثمانية ، ونكل اسماعيل بن عبيد الله ، مولى بني مخزوم ، ونكل بنكوله ، السمح بن مالك الخولاني - ومعنى نكولهما ، أنهما لم يكونا متأكدين مما حلف عليه الثمانية الباقون وليس معنى هذا أن الثمانية كاذبون ، لكن نكول اسماعيل عبيد الله ، والسمح أعجب عمر بن عبد العزيز ، الذي كان لا يغيب عن مجلس ابن عمه سليمان ابن عبد الملك ، وكان أكبر مستشاريه ، واعتبر ذلك دليلاً على ورعهما وصلاحهما ، وظل يرقبهما ، فلما آلت إليه الخلافة بعد سليمان ، ولى إسماعيل بن عبيد الله على إفريقية ، والسمح بن مالك على الأندلس (١٩٧) ، ويروى الإمام الذهبي عن أبي عمير بن النحاس ، عن أبيه أنه كان لا يدخل بيت المال لهشام بن عبد الملك ، شيء ، حتى يشهد أربعون قسامة ، لقد أخذ من حقه ، ولقد أعطى الناس حقوقهم (١٩٨) ، هذه أمثلة من عهود مختلفة من خلفاء بني أمية . تدل على تحريهم العدل ، وتحرجهم من دخول المال الحرام إلى بيت المال ، ولكن المشكلة كانت في خروج الأموال من بيت المال فهل كانت كل تصرفاتهم المالية منضبطة تمام الانضباط ، وفوق الشبهات ، بحيث لا ندع لقائل مقالاً ، الواقع أن الأمر ليس كذلك بل كانت هناك تجاوزات كثيرة ، والمصادر التي أمدتنا بالأمثلة والنماذج السابقة ، هي نفسها التي تمدنا بنماذج أخرى من التجاوزات ، سواء من الخلفاء وأبنائهم أو من عمالهم وولاتهم ، و هذا يدل على نزاهة هذه المصادر وأن مؤلفيها لم يخفوا شيئاً بما كان يحدث ، ولم يجاملوا الحكام ، كما يزعم البعض ، والحق أننا نجد

بعض خلفاء بني أمية تجاوزوا سنة الخلفاء الراشدين في نظرتهم إلى المال ، فبينما كان الخلفاء الراشدون ينزهون أنفسهم تماماً عن أموال المسلمين ، ويحوطون بيت المال بكل الضمانات التي تكفل حفظها ، حتى لا تمتد إليها يد ، ومن هذه الضمانات أنهم كانوا يجعلون بيت المال في كل ولاية تحت إدارة والٍ خاص ، وليس للأمير - الذي كان يسمى أمير الحرب والصلاة - أية سلطة عليه ، بل كان صاحب بيت المال ، أو أمير الخراج يتبع الخليفة مباشرة ، ويحاسب أمامه وحده ، وكل درهم يدخل أو يخرج فبحساب دقيق ، ومراجعة محكمة ، هذا الوضع تغير ، ولم يعد هناك حد فاصل بين بيت المال المركزي ، في دمشق عاصمة الخلافة الأموية ، و بين أيدي الخلفاء ، الذين توسعوا في إغداق المال على أنصارهم ، كما سبق أن ذكرنا وبعض هذه الأموال كان يذهب كمنح وعطايا لأبنائهم وأقربائهم ، وللشعراء الذين كانوا يمدحونهم ، ويروجون لأفكارهم وسياساتهم ، على سبيل التوسعة ، وكذلك لم يكن هناك حد فاصل بين بيوت المال المحلية في الأقاليم ، وبين أيدي الولاة ، حيث كان بيت المال تحت إشراف الوالي مباشرة ، يأخذ منه ما يريد ، دون أن يلاحق بمتابعة ومراقبة محاسبين دقيقة ، ولذلك كون بعض الولاة ثروات ضخمة ، ناهيك عن الخلفاء وأبنائهم ، فهذا هو المهلب بن أبي صفرة ، حين صرفه الحجاج بن يوسف الثقفي ، والي العراق عن الأهواز أوجده قد احتجن لنفسه ألف ألف درهم - يعني مليون - من بيت المال (١٩٩) .

أما ابنه يزيد ، فقد احتجن لنفسه ، أثناء ولايته على خراسان ، للخليفة سليمان بن عبد الملك ، ستة آلاف ألف درهم - يعني ستة ملايين - من بيت المال ، ومن أجل هذا وضعه عمر بن عبد العزيز في السجن ، ورفض إطلاق سراحه إلا بعد أداء هذا المال إلى بيت المال .

وهذا خالد بن عبد الله القسري ، والي العراق في عهد هشام بن عبد الملك يقال إن راتبه السنوي ، كان عشرين ألف ألف درهم - يعني عشرين مليوناً - وهذا الراتب الضخم لم يكن يكفي نفقاته ، فكان يستصفى لنفسه ، بوسائل غير مشروعة ، ما يزيد على مائة ألف درهم كل عام ، ويروي أنه بعد أن عزل ، استخرج منه خلفه في حكم العراق ، يوسف بن عمر الثقفي ، سبعين ألف ألف درهم- يعني سبعين ميلوناً ولعل الذي جعل الولاة بهذا النهم الشديد إلى المال ، هو حياة البذخ والترف الزائد ، التي كانوا يعيشونها ، والتأنق في بناء القصور ، والتنافس الشديد في هذا الميدان ، ومما يروي في ذلك أن عبيد الله بن زياد بني دارا في البصرة أثناء ولايته عليها ، كلفها ألف ألف درهم - يعني مليون - وملأها بالرياش والطنافس ، وزخرف حيطانها ، بتصاوير الحيوانات . أما قصور الخلفاء أنفسهم فكانت أعظم بهاء وأزهى زينة ، على كل حال استشرى هذا الفساد الإداري والمالي ، وكأنما أصبحت الولاية على الناس ، هي السبيل إلى الثراء وجمع المال من أي طريق ، وضج الناس بالشكوى ، من استفحال هذا الأمر ، حتى جاء الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، فعكف على سجلات الدولة وأخذ يتحرى عن الأقطاعات التي منحت لأمراء بني أمية وأتباعهم ، وما رأي أخذ بغير حق سماه مظالم ، ورده إلى بيت مال المسلمين ، وبدأ بنفسه . وألغى كل الضرائب الاستثنائية ، وأمر بحط الجزية عمن أسلموا من الموالي وأهل الذمة ، وعزل معظم العمال القدامى الذين ، أفسدوا الحياة المالية والإدارية وعين بدلهم عمالاً جدداً انتقاهم بنفسه من أهل الورع والتقى والصلاح لينفذوا سياسته الإصلاحية ، التي أدت إلى نتائج باهرة ، في غضون فترة زمنية قصيرة (٩٩ - ١٠١هـ) ، فاستقامت الأمور ، وتحقق العدل ، كما تحققت الكفاية والحد الأدنى من المعيشة

الكريمة على كل الأرض الإسلامية من الأندلس إلى حدود الصين ، ولم يعد في الدولة فقير يستحق الصدقة ، وهذه حالة فريدة في تاريخ البشر ، روى الإمام الذهبي عن عبد الرحمن بن زيد ، عن عمر بن أسيد ، قال : « والله مامات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حين ترون ، فما يبرح حتى يرجع بماله كله ، قد أغنى عمر الناس » [٢٠٠] وهذا تعبير مجازي ، فالذي يغني الناس هو الله سبحانه وتعالى ، ولكن الراوي يقصد أن السياسة الرشيدة التي سار عليها عمر وطبقها كانت السبب في القضاء على الفقر والعوز في دولة الإسلام . وهذه عبرة تاريخية لو وعاها المسلمون لتخلصوا من الفقر وكثير من المشكلات الاجتماعية التي يعانونها .

ولكن لسوء الحظ ، يتوفى عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - سريعاً ، ولا تجد سياسته العادلة ، ومنهجه في الحكم وسلوكه الشخصي ، من يواصله ، وتروى عن خلفه في الخلافة وابن عمه يزيد ابن عبد الملك روايات كثيرة من التبذل ، ومجالسة المغنيين والمغنيات ، والشغف بالجواري ، وحكايته مع جاريتيه ، سلامه وحبابة مشهورة ، ولم يرع للخلافة حرمتها ، أما ابنه الوليد بن يزيد ، فقد زاد عليه وأربى في هذا الضرب من التبذل وعدم الشعور بمسؤولية الخلافة مما جعل دولتهم تهوى سريعاً نحو الزوال ، لأنهم إلى جانب ترفهم وانشغالهم بملذاتهم ، كانت تنقصهم الكفاية السياسية والإدارية اللازمة لإدارة دولة امتدت حدودها من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غربا .

ويبدوا أن الترف استشرى في المجتمع ولم يكن قاصراً على خلفاء بني أمية وعمالهم ، فلم تنج منه الدولة الزبيرية ، فمع أن عبد الله بن الزبير والذي استمرت دولته حوالي تسع سنوات ٦٤ - ٧٣هـ . كان هو

شخصياً حريصاً على أموال المسلمين ، ولم يكن معطاء كخلفاء بني أمية ، حتى أتهم بالبخل ، وذهب البعض إلى أن بخله هذا كان من أسباب فشله ، وزوال دولته سريعاً ، إلا أن الروايات كثيرة في كتب التاريخ والأدب عن أن حياة أخيه مصعب ، عندما كان يلي له حكم العراق ، لم تكن أقل بذخاً من حياة أمراء بني أمية ، وأن معيشة زوجتيه ، سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، لم تكن أقل أبهة من معيشة زوجات الخلفاء الأمويين بل كانت تتفوق عليها ، فيروى أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، وكانت زوجاً للخليفة عبد الملك بن مروان ، استأذنته في الحج ، فقال لها إرفعي حوائجك ، واستظهري ، فإن عائشة بنت طلحة - زوج مصعب بن الزبير - تحج ، ففعلت ، وجاءت بهيئة جهدت فيها ، فلما كانت بين مكة والمدينة ، إذا موكب جاء فضغطها ، وفرق جماعتها ، فقالت أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة ، عائشة ، فضغطهم . فسألت عنه ، فقالوا هذه ماشطتها ، ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة ، عليها القباب والهوادج ، فقالت عاتكة : ما عند الله خير وأبقى ، وكانت عائشة أثيرة عند مصعب ، يروي الحافظ بن عساكر أنها غضبت مرة من مصعب فترضاها بأربعمائة ألف درهم ، فأهدتها للمرأة التي أصلحت بينهما (٢٠٩) ، وكان مصعب يهدي أصدقاءه هدايا تقدر بالملايين ، فيذكر الجهشياري أن عامل خراسان أثناء تبعيتها لابن الزبير ، وجد نخله كانت لكسرى ، مصنوعة من الذهب ، عثاكيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر ، فحملها إلى مصعب بن الزبير ، والي العراق - فجمع المقومين ... فقوموها بألفي ألف دينار ، فقال : إلى من أدفعها ؟ فقيل : إلى نسائك وأهلك ، قال : لا بل إلى رجل قدم عندنايداً ، وأولانا جميلاً ،

أدعوا عبد الله بن أبي فروة ، فدفعها إليه .

ويبدو أن سائر عمال عبد الله بن الزبير ، لم يكونوا أحسن حالاً من عمال بني أمية في احتجان الأموال مما جعل الناس تضج بالشكوى منهم ، وارتفعت الأصوات تطالب ابن الزبير بالنظر في سلوك عماله الذين كثرت مظالمهم ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة طويلة للشاعر عبد الله بن همام السلولي ، يوجه فيها لابن الزبير شكوى عنيفة من عماله على العراق ، إستهلها بقوله :

يابن الزبير أمير المؤمنين ألم
يبلغك ما فعل العمال بالعمل
باعوا التجار طعام الأرض واقتسموا
صلب الخراج شحاحاً قسمة النفل

ومضى يسميهم واحداً واحداً ، مصوراً لخياناتهم في الحكم ومطالباً بمحاسبتهم على ما استخلصوا من الأموال لأنفسهم ظلماً وعسفاً .

* * *

الفصل الثالث

الفتوحات في العصر الأموي

تمهيد :

المتتبع لحركة الفتوحات الإسلامية ـ خارج شبه الجزيرة العربية ـ منذ عهد الخليفة الأول ، أبي بكر الصدق ﷺ (١١ - ١٣هـ) يدرك أن هذه الفتوحات جاءت استطراداً وتحت ضغط الظروف ، وأن المسلمين اضطروا لهذه الفتوحات اضطراراً ، إذ لم يكن هناك برنامج ـ معد سلفاً ـ للفتوحات أو للصدام المسلح مع الآخرين ، لأن نشرالإسلام الذي هو غاية المسلمين الرئيسية ، لم يكن يتطلب بالضرورة أعمالاً حربية ، فالدين إيمان يقر في القلوب ، والقلوب لا يستطيع أحد أن يفرض عليها شيئاً بالقوة ، والقرآن الكريم صريح في النص عن عدم إكراه الناس على الإيمان بالقوة : « لا إكراه في الدين » .

وكل ما كان يطلبه المسلمون من الآخرين أن يفسحوا لهم الطريق ليدعوا إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما يأمرهم ربهم ، وهذا منهج رسمه رسول الله ﷺ ، الذي كانت سياسته تقوم على تأمين شبه الجزيرة العربية ضد أي عدوان خارجي ، ثم دعوة الناس خارج الجزيرة العربية إلى الإسلام بالحسنى ، ولكن الدول صاحبة القوة والسلطان يومئذ ، والمهيمنة على حدود شبه الجزيرة العربية ـ وهم الفرس والروم ـ لم يعطوا الإسلام هذه الفرصة ، بل أخذت تلك الدول تكيد للإسلام وتقاومه ، بل وتعتدي عليه منذ البداية ، وتمثل ذلك في تمزيق كسرى فارس للرسالة التي أرسلها له النبي يدعوه فيها إلى الإسلام ، ثم في موقف الفرس من تحريض العرب على الردة ، كما تمثل في عدوان الروم

على المسلمين في غزوة مؤتة سنة ٨هـ وما تلاها ، وباختصار وقف الفرس والروم جميعاً موقف العداء المطلق من الإسلام ، وأخذوا يجهزون أنفسهم للقضاء عليه ، فكان لابد للمسلمين من أن يدافعواعن أنفسهم ، فبدأ الصدام مع الفرس والروم منذ مطلع خلافة أبي بكر الصديق (١١- ١٣هـ) واستطاع المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين (١١ - ٤٠هـ) أن يهزموا الفرس والروم هزائم ساحقة ، أما الفرس فقد أزالوا دولتهم من الوجود في عهد عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣هـ) وأما الروم فقد طردوهم من أغنى وأهم مستعمراتهم في الشرق ـ الشام ومصر .

ولكن في آخر عهد الخلفاء الراشدين توقفت الفتوحات الإسلامية ـ أو كادت ـ بسبب الفتن والحروب الداخلية التي نشبت بين المسلمين ـ كما مر بك ـ فلما قامت الدولة الأموية سنة ٤١هـ على يد معاوية بن أبي سفيان ، واجتمعت كلمة المسلمين مرة أخرى على خليفة واحد ، بدأت الدولة تستأنف الفتوحات من جديد .

ولا شك في أن الفتوحات الإسلامية التي تمت في عهد بني أمية تعتبر من أعظم انجازاتهم الباقية على الزمن ، تلك الفتوحات التي شملت مناطق عديدة في قارات العالم القديم ـ آسيا وإفريقيا وأوربا ـ ففي آسيا فتح الأمويون إقليم آسيا الوسطى ، أو المناطق التي تسمى بلاد ما وراء النهر ، وهي الواقعة بين نهري جيحون وسيحون ، ثم إقليم السند في شبه القارة الهندية ، وفي إفريقيا استكمل الأمويون فتح شمال القارة كله من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي ، وفي أوربا فتحوا الأندلس ـ شبة جزيرة إيبريا ـ وأجزاء من جنوب فرنسا ، كما استولوا على العديد من الجزر في شرق وغرب وجنوب البحر الأبيض

المتوسط ، ثم واصلوا ضغطهم على مدينة القسطنطينية ـ عاصمة الدولة البيزنطية ـ وحاصروها أكثر من مرة وحاولوا الاستيلاء عليها ، ومعنى هذا أن نشاط الأمويين الهائل في ميدان الفتوحات لم يقتصر على الفتوحات البرية ، بل كانت لهم جهود كبيرة في الفتوحات في البر والبحر ، وإليك بعض تفاصيل ذلك :

الفتوحات البحرية في العصر الأموي :

لم يكن العرب قبل الإسلام يعرفون ركوب البحر محاربين ، وإن كان بعضهم قد ركبوه متاجرين ، كما كان من شأن أهل اليمن . فلما ظهر الإسلام ، وبدأت حركة الفتوحات ، وتم للمسلمين فتح الشام ومصر وجدوا أنفسهم وقد سيطروا على الشواطيء الشرقية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ، ولكي يحافظوا على سلامة هذه الشواطيء ضد هجمات الروم كان لابد لهم من أن يمتلكوا قوة بحرية ، وكان أول من تنبه لهذا هو معاوية بن أبي سفيان ﷺ ، الذي يعتبر صاحب الفضل الأكبر في جعل المسلمين قوة بحرية هائلة في مدة وجيزة ، قوة لم تصبح نداً لقوة الروم البحرية فحسب ، بل تفوقت عليهم وهزمتهم واستولت على كثير من ممتلكاتهم في البحر الأبيض المتوسط .

والذي جعل معاوية يتنبه لهذا ويهتم به غاية الاهتمام أنه اضطلع بعبء الفتوحات في سواحل الشام منذ عهد أبي بكر الصديق ﷺ ، ورأى حصانة مدن هذه السواحل وقوتها فأدرك أنه لكي تثبت أقدام المسلمين فيها ، فلابد لهم من أسطول بحري قوي ، فعرض على الخليفة عمر بن الخطاب مشروعه لإقامة أسطول بحري إسلامي ، وأخذ يوضح للخليفة أهمية ذلك ، كما أخذ يجسم له خطر الروم الماثل في معاقلهم القريبة من حدود المسلمين ، فقال له عن جزيرة قبرص أن أهل حمص

يسمعون نباح كلابها وصياح دجاجها . أي أنها قريبة جداً من حدود المسلمين وتهددهم باستمرار .

ولكن عمر ﷺ رفض رفضاً قاطعاً أن يأذن لمعاويه بالبدء في إنشاء اسطول إسلامي ، خوفاً على المسلمين من أهوال ركوب البحار ، وأمر معاوية أن يستعيض عن ذلك بترميم حصون سواحل المسلمين وشحنها بالمقاتلين ، وأمام إصرار الخليفة على موقفه أجل معاوية مشروعة إلى أن تتهيأ له الظروف المناسبة ولكن الفكرة لم تفارق ذهنه قط ، فلما توفى عمر وبويع عثمان ﷺ ، بادر معاوية بعرض المشروع على عثمان ، ولكن عثمان رفض في البداية متأثراً برفض عمر السابق ، ولكن معاوية لم ييأس وواصل إلحاحه على عثمان حتى أذن له بإنشاء الأسطول الإسلامي .

لم يضيع معاوية وقتاً ، وبدأ على الفور في إنشاء الأسطول مستغلاً كل الإمكانيات المتاحة لصناعة السفن في كل من مصر والشام ، فقد كانت في مصر دور صناعة سفن قديمة وعمال مهرة مدربين ، كما كان في الشام الكثير من المواد الخام التي تصلح لصناعة السفن ، مثل أخشاب الصنوبر والبلوط والعرعر ، وفي مصر توجد أخشاب الصنط التي تصلح لعمل الصواري وضلوع السفن ، وخشب الجميز واللبخ والدوم التي تصلح لصناعة المجاديف . وقد أدى التعاون الوثيق بين مصر والشام في هذا المجال - بفضل سياسة معاوية الحكيمة - إلى بروز الأسطول الإسلامي كقوة ضاربة في البحر المتوسط في وقت قياسي ، بحيث لم يقف نداً للأسطول البيزنطي فقط ، بل انتزع منه السيادة على هذا البحر .

غزو جزيرة قبرص :

لم يمضي وقت طويل على بدء العمل في إنشاء الأسطول الإسلامي حتى عزم معاوية على غزو جزيرة قبرص القريبة من حدود المسلمين ، والتي كانت تهددهم باستمرار ، وقد غزا هذه الجزيرة سنة ٢٨هـ ولكن أهلها طلبوا الصلح وقبلوا دفع جزية مقدارها سبعة آلاف ومائتي دينار كل عام ، كما اشترط عليهم معاوية أن يؤذنوا المسلمين بمسير الروم إليهم وأن يكونوا على الحياد فلا يقاتلون المسلمين ولا يقاتلون معهم ولا يعينون الروم عليهم . ولكن أهل قبرص نقضوا هذه الشروط بعد عودة الأسطول الإسلامي ولم يوفوا بالتزاماتهم مما جعل معاوية يغزوهم ثانية سنة ٣٣هـ . ولم يخرج هذه المرة من الجزيرة ، بل ضمها إلى ممتلكات الدولة الإسلامية ، ونقل إليها إثنى عشر ألفاً من المسلمين أسكنهم فيها وبنى لهم الدور والمساجد (٢٠١) .

موقعة ذات الصواري سنة ٣٤هـ :

لما برز الأسطول الإسلامي بقوة وتجلى ذلك في قدرته على غزو جزيرة قبرص انزعج البيزنطيون وصمموا على تحطيم هذا الأسطول قبل أن تكتمل قوته . لينفردوا بالسيطرة على البحر الأبيض ، فقاد الأمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني أسطوله بنفسه لمهاجمة السواحل الإسلامية ، ولكن المسلمين لم يكونوا غافلين فما أن علموا بتحركات الأسطول البيزنطي حتى بادروا بالاستعداد لملاقاته وتجلى بوضوح التعاون الوثيق بين مصر والشام وأسندت قيادة الأسطول الإسلامي إلى أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، والتقى الأسطولان الإسلامي والبيزنطي في شرق البحر الأبيض المتوسط ، قبالة شاطيء آسيا الصغرى ، ودارت بينهما معركة بحرية كبيرة انتهت بنصر ساحق للأسطول الإسلامي ،

وهزيمة منكرة للأسطول البيزنطي ، ،ولم ينج الأمبراطور إلا بإعجوبة ، وقد سميت هذه المعركة في المصادر الإسلامية بمعركة ذات الصواري لكثرة السفن التي اشتركت فيها من الجانبين [٢٠٢] .

كانت تلك النتيجة التي أسفرت عنها هذه المعركة بالغة الأهمية في قصة العلاقات بين المسلمين والروم ، بل تعتبر من وجهة نظر بعض المؤرخين من المعارك الحاسمة التي غيرت مجري تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، وأنهت وصفه ببحر الروم وجعلته حرياً بأن يدعى بحر المسلمين .

معاوية والقسطنطينية :

لقد نجح معاوية بن أبي سفيان في تحقيق هدفه وأنشأ الأسطول الإسلامي وهو لم يزل بعد أميراً على الشام ، فلما أصبح خليفة لم تتغير سياسته البحرية تجاه البيزنطيين ، وإذا كان طرأ على هذه السياسة جديد فهو أنه أصبح حراً في اتخاذ القرار ، وقد طور سياسته ووضع أمامه هدفاً واضحاً وهو الاستيلاء على مدينة القسطنطينية - عاصمة الدولة البيزنطية ، ولعله كان يرمي من وراء الاستيلاء على العاصمة أن يسقط الدولة ذاتها ، والحقيقة كانت مدينة القسطنطينية من أهم مدن العالم في ذلك الوقت من جميع النواحي ، الاستراتيجية والتجارية والثقافية ، وكانت ذات مناعة طبيعية جعلتها تستعصى على كل محاولات الأمويين ، ولكن كل ذلك لم يمنع معاوية من محاصرتها أكثر من مرة ، واستعد لذلك إستعداداً كبيراً ، فعمل على تقوية الأسطول باستمرار ، كما عمل على تقوية الثغور والمواني الإسلامية في مصر والشام ، ثم أخذ يستولى بالتدريج على الجزر البيزنطية الواقعة شرقي البحر المتوسط لتكون محطات للأسطول الإسلامي أثناء غزو ه للقسطنطينية ، فاستولى

على جزيرة رودس وجزيرة كريت وجزيرة أرواد التي كانت ذات أهمية بعض الشهداء ، منهم أبو أيوب الأنصاري ﷺ (٢٠٣) .

ولما أكمل معاوية إستعداداته حرك أسطوله لحصار القسطنطينية للمرة الأولى سنة ٤٩هـ وأسند قيادته لسفيان بن عوف وجعل ابنه يزيد أميراً شرفياً لهـذه الحملة التي ضمت عـدداً كبيراً من الصحابـة منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصار ، ولكن نظراً لصعوبة المناخ ومناعة المدينة لم يستطع المسلمون الاستيلاء عليها فعـادوا إلى الشام بعد أن فقـدوا بعض الشهداء ، منهم أبو أيوب الأنصاري ﷺ (٢٠٤) .

الحصار الثاني للقسطنطينية :

لم تستطع الحملة الأولى التي أرسلها معاوية إلى القسطنطينية الاستيلاء عليها ومع ذلك لم ييأس وواصل استعداداته للزحف عليها من جديد وبقوة أكبر من السابقة ، وقد حاصرها هذا المرة لمدة سبع سنوات ٥٤-٦٠هـ. وكانت العمليات الحربية تقتصرعلى فصلي الربيع والصيف لصعوبة القتال في فصل الشتاء لشدة البرد ، ورغم ما أبداه المسلمون من صبر وجلد وتحمل للصعاب والمشقات إلا أن المدينة صمدت أمامهم بفضل مناعتها الطبيعية ، وبفضل سلاح رهيب اخترعه البيزنطيون يسمى النار الإغريقية ، وهو عبارة عن مركب كيميائي مكون من النفط والكبريت والقار ، فكانوا يشعلونه بالنار ويقذفون به مراكب المسلمين فتشتعل فيها النار ، والعجيب أنه كان يزداد إشتعالاً إذا لامس الماء .

وكيفما كان الأمر فقد تضافرت عدة عوامل ، حالت دون استيلاء المسلمين على المدينة ، من هذه العوامل ، مناعة المدينة الطبيعية ، وقوة

تحصيناتها ، ورداءة الطقس ، والنار الإغريقية ، وأمام هذه الصعوبات رأى معاوية أنه من المصلحة عودة هذا الجيش إلى الشام خصوصاً وأنه قد كبر سنه ، وأحس بدنو أجله ، وكان يتوقع أن تواجه ابنه يزيد مشكلات عديدة فمن الحكمة أن يكون هذا الجيش بجانبه في الشام يشد أزره .

الحصار الثالث والأخير للقسطنطينية في العصر الأموي :

ما كاد الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية يعود إلى الشام حتى توفى معاوية سنة ٦٠هـ فدخلت الدولة الأموية في دوامة من الفتن وواجهت العديد من الثورات ، واستمر هذا الوضع إلى أواخر خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦هـ) الذي يرجع إليه الفضل في إعادة الوحدة للأمة الإسلامية ، حيث ترك لابنه الوليد (٨٦ - ٩٦هـ) دولة قوية مستقرة مهابة ، مكنته من القيام بحركة فتوحات واسعة النطاق ، وكان الاستيلاء على القسطنطينية هدفاً رئيسياً من أهدافه فأخذ يعد العدة لتحقيقه ، ولكنه توفى قبل أن يوجه جيوشه لمحاصرتها ، فلما جاء أخوه سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ) كان من أول الأهداف التي عمل على تحقيقها الاستيلاء على القسطنطينية ، واهتم بذلك اهتماماً كبيراً وأخذ يشرف على إعداد الحملة بنفسه ، ونقل مقر إقامته إلى دابق في شمال الشام ليكون على مقربة من مسرح العمليات ، وأسند قيادة الجيش المتوجه إلى القسطنطينية إلى أخيه مسلمة بن عبد الملك ، وهو فارس بني أمية ، وله خبرة طويلة في قتال البيزنطيين .

استعد مسلمة للمهمة استعداداً كبيراً وأخذ كافة الاحتياطات التي تكفل لحملته النجاح ، من حيث العتاد العسكري والطعام للجند

والدواب ، والأخشاب اللازمة لإقامة بيوت تقي الجند برد الشتاء القارس (٢٠٥) ، إلى غير ذلك مما يلزم الجيوش المحاربة .

تحرك الجيش الإسلامي ـ الذي كان عدده حوالي ثمانين ألفاً وكان معهم ١٨٠٠ سفينة كبيرة ، عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة ، وأخذ مسلمة ينظم التعاون بين القوات البرية والبحرية لإتمام حلقة الحصار على القسطنطينية ، فاضطلعت قوات مسلمة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية ، على حين عمد سليمان أمير البحر إلى سد المنافذ والمسالك المائية التي يمكن أن تحصل منها العاصمة على الإمداد والمؤن ، ثم حاصر أسوار المدينة البحرية كذلك .

فشل الحملة وأسبابه :

على الرغم من الاستعدادات الهائلة والجهود المتواصلة المضنية التي بذلها الخلفاء الأمويون طوال سنوات عديدة ، إلا أنهم لم ينجحوا في الاستيلاء على مدينة القسطنطينية ، لأسباب كثيرة ، خارجة عن إرادتهم ، وقد عرفنا فيما سبق بعض هذه الأسباب ، مثل مناعة المدينة الطبيعية والحصون التي أقامها الأباطرة حولها ، وصعوبة الطقس في منطقتها ، والنار الإغريقية التي كانت تفتك بالسفن والجنود المسلمين ، وفي هذه الحملة الأخيرة ، برز سبب آخر حال دون المسلمين وتحقيق هدفهم ، ذلك السبب هو الخدعة التي قام بها ليون الأيسوري حاكم إقليم الأناضول ، والذي سيصبح فيما بعد إمبراطوراً على بيزنطة ، عندما كان الجيش الإسلامي يسير متجهاً إلى القسطنطينية ، عبر إقليم الأناضول تقدم ليون والتقى بمسلمة بن عبد الملك وتظاهر بعرض خدماته عليه ، وأنه سيسهل له الوصول إلى القسطنطينية ، وليس له إلا مطلب واحد ، وهو منع الجيش الإسلامي من إتلاف أي شيء في إقليمه ، هذا ما تظاهر

به ليون ، ولكن الحوادث أثبتت أنه كان يضمر في نفسه أمراً خطيراً ، وهو استغلال المسلمين في الوصول إلى عرش بيزنطة ، ثم ردهم عن القسطنطينية عندما يتحقق له ذلك ، وهذا ما حدث بالفعل [٢٠٦] ، بحيث لم يكد ليون الأيسوري يصل إلى القسطنطينية ويعتلي العرش بمساعدة الجند الأسيويين حتى جعل هدفه الأول منع المسلمين من الاستيلاء عليها ، ولقد ساعدته كل الظروف على ذلك ، ففي هذه الأثناء توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز فرأى رفع الحصار عن المدينة وأمر بعودة الجيش الإسلامي إلى الشام ، وبهذا نجت عاصمة البيزنطيين من الوقوع في أيدي الأمويين ، ولكن كل ذلك لا يقلل من قيمة الجهود التي بذلها الأمويون ، فقد نجحوا في إلقاء الرعب في قلوب البيزنطيين ، وجعلوهم يقفون دائماً موقف الدفاع عن عاصمتهم ، كما جعلوا الاستيلاء على القسطنطينية أملاً ظل حياً في نفوس المسلمين أكثر من سبعة قرون حتى تحقق في النهاية على يد السلطان العثماني المسلم محمد الفاتح سنة ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م . ذلك السلطان الذي قضى على الدولة البيزنطية .

* * *

الفتوحات البرية في العصر الأموي

في الصفحات السابقة تحدثنا عن جهاد المسلمين البحري في العصر الأموي ، ونجاحهم في إنشاء أسطول بحري إسلامي قوي ، استطاع أن يقف نداً للأسطول البيزنطي ، بل هزيمته والتفوق عليه ، وفي الصفحات التالية نتحدث عن جهادهم وفتوحاتهم في البر ، والتي شملت ثلاث جبهات ، جبهة شمال إفريقيا والأندلس ، وجبهة بلاد ما وراء النهر ، وجبهة إقليم السند.

فتح شمال إفريقيا :

تم فتح مصر في عهد عمر بن الخطاب ﷺ - كماسبق ذكره - وأراد عمرو بن العاص أن يستمر في فتح شمال إفريقيا ، لكن عمر بن الخطاب رفض أن يأذن له بمواصلة الفتح خوفاً على المسلمين (٢٠٧) . ولعله لم يكن مستريحاً للسرعة التي تمت بها الفتوحات ، وكان يخشى أن تتسع أمام المسلمين وتصل إلى حد غير مأمون ، ومن ناحية أخرى فإن عمر كان على يقين من أن الإسلام سينتشر ويغزو القلوب دون حاجة إلى غزو وقتال ، لأنه دين الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها ، وكل ما كان على المسلمين أن يفعلوه أن يزيلوا من أمامه العقبات ، وأن يدعو الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة .

أمام إصرار عمر بن الخطاب على رفض الاستمرار في الفتح عاد عمرو بن العاص إلى الفسطاط - بعد أن كان وصل إلى طرابلس الغرب - واعتنى بتحصين حدود مصر الغربية .

وفي عهد عثمان بن عفان (٢٣ - ٣٥هـ) واصل والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح سياسة تحصين حدود مصر الغربية ،

والقيام بغزوات خاطفة على إفريقية ـ تونس الحالية ـ وكانت هذه الغزوات الخاطفة التي قادها عمرو بن العاص ومن بعده عبد الله بن سعد على حدود مصر الغربية مفيدة للغاية بالنسبة للمسلمين ، فقد مكنتهم من معرفة هذه البلاد ودراسة طرقها ومسالكها وجغرافيتها .

معاوية بن أبي سفيان وفتح شمال إفريقيا :

توقفت الفتوحات تقريباً في شمال إفريقيا في آخر خلافة عثمان بسبب الفتنة التي أدت إلى استشهاده ، ثم استمر هذا التوقف طوال خلافة علي بن أبي طالب (٣٥ - ٤٠هـ) ، فلما استتب الأمر لمعاوية سنة ٤١هـ كانت جبهة شمال إفريقيا من أولى الجبهات التي وجه إليها اهتمامه ، لمتاخمتها لحدود مصر الغربية من ناحية ، ومن ناحية ثانية فهي تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية ، والعدو اللدود للدولة الإسلامية ، والتي صمم معاوية على تضييق الخناق عليها وعدم إعطائها أي فرصة للراحة أو التقاط الأنفاس ، ففي أول سنة من سنوات حكمه (٤١هـ) أرسل حملة إلى إفريقية بقيادة معاوية بن حديج ، ثم أرسله ثانية سنة ٤٥هـ على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل ، معهم بعض الصحابة ، ومنهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير وغيرهم من أشراف قريش . وفي هذه الغزوة فتح ابن حديج مدينة جلولاء ومدينة سوسة (٢٠٨) .

عقبة بن نافع وفتح إفريقيا :

بعد هذا النشاط الذي بدأ في جبهة شمال إفريقيا رأى معاوية بن أبي سفيان تصعيد عمليات الفتح فأسند قيادة الجبهة إلى قائد من كبار القادة الذين خلد التاريخ الإسلامي أسماءهم في ميادين الفتوحات ،

وهو عقبة بن نافع الفهري ، الذي شارك في غزو إفريقية منذ أيام عمرو ابن العاص ، واكتسب خبرة واسعة جعلته يعتقد أنه لكي يستقر الأمر للمسلمين في شمال إفريقيا فلابد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها في غزواتهم ثم يعودون إليها ، ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم ، فبنى بإذن من معاوية بن أبي سفيان مدينة القيروان (٥٠ - ٥٥هـ) وفي أثناء بناء المدينة كان عقبة يرسل السرايا ويدعوا الناس إلى الإسلام فدخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين واطمأنوا على المقام بمدينة القيروان فثبت الإسلام فيها [٢٠٩] .

فتوحات أبي المهاجر دينار :

استمر عقبة بن نافع قائداً لجبهة أفريقيا إلى سنة ٥٥هـ ثم عزل وحل محله قائد آخر من خيرة القادة المسلمين ، وهو أبو المهاجر دينار ؛ مولي مسلمة بن مخلد والي مصر ، وكان أبو المهاجر يتمتع بقدر من الكياسة وحسن التصرف ، فقد رأى أن البربر - سكان شمال إفريقيا - قوم أشداء يعتدون بكرامتهم وحريتهم ، فسياسة اللين قد تكون أجدى من سياسة الشدة ، ونجحت هذه السياسة معهم نجاحاً كبيراً ، خصوصاً وأن أبا المهاجر جاء إلى شمال إفريقيا في وقت كان البيزنطيون يعملون على توثيق علاقاتهم بالسكان ، فبدأوا يناصرونهم في حروبهم ضد المسلمين ، فكان علي أبي المهاجر أن يضرب تحالف البربر مع البيزنطيين ، فهاجم الأخيرين في عاصمة إفريقيا - مدينة قرطاجنة - وشدد عليها الحصار مما جعل البيزنطيين يطلبون منه الصلح ، فصالحهم على أن يخلوا له جزيرة مهمة في البحر تسمى جزيرة شريك ، لينزل فيها جنوده وتكون للمسلمين .

وبذلك حقق أبو المهاجر نصراً عسكرياً كبيراً على البيزنطيين ، ثم

اتجه بعد ذلك إلى المغرب الأوسط - الجزائر الحالية - ففتح معظم هذا الإقليم بعد سلسلة من المعارك في ميلة وبجاية وتلمسان ، وأظهر أبو المهاجر بعد نظر كبير عندما وقع في يده زعيم البربر كسيلة أسيراً ، فلم يهنه بل أكرمه وأحسن إليه وكان لتلك المعاملة أثر طيب في نفسه ونفوس قومه البربر ، ونتيجة لهذه المعاملة الكريمة أسلم كسيلة وأسلم كثيرون من قومه تأسيا به (٢١٠) .

حملة عقبة بن نافع الثانية ٦٢- ٦٣ هـ واستشهاده :

بعد أن فتح أبو المهاجر المغرب الأوسط واطمأن على أحواله عاد إلى مقره قريباً من القيروان ولكن يزيد بن معاوية عزله سنة ٦٢هـ وأعاد عقبة بن نافع مرة أخرى إلى شمال إفريقيا ، و في هذه المرة قام عقبة بغزوته الجريئة التي وصل فيها إلى شاطئ المحيط الأطلسي ، وأوطأ فرسه مياهه وقال قولته المشهورة« اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك (٢١١) .

يبدو أن عقبة وهو في غمرة الأنفعال والحماس للغزو لم يهتم بتأمين مؤخرته ، وقام بحملته الخاطفة تلك ، فلما عاد وقع في كمين نصبه له البيزنطيون بمساعدة كسيلة زعيم البربر ، الذي كان عقبة قد قبض عليه وأهانه ، فأضمر الرجل الشر لعقبة وأخذ يراسل البيزنطيين سراً وهو في أسر عقبة وأعلمهم بسيره وأحواله ، ولقد ساهم عقبة نفسه في حدوث الكارثة التي حلت به وبجنوده حيث سرح معظم الجيش الذي كان معه وأمرهم بالمسير أمامه مسافات طويلة ، وسار هو وراءهم في عدد قليل - حوالي ثلاثمائة جندي - وبينما هو عائد في غاية الاطمئنان وقع في كمين الغدر الذي نصبه له كسيلة والبيزنطيون عند

قرية تهوذة فقضوا عليه وعلى كل من معه ، وكانت كارثة مروعة أثرت في المسلمين تأثيراً سيئًا بحيث لم يستطيعوا البقاء في القيروان بل رحلوا إلى برقة ، وضاعت كل الفتوحات التي فتحها المسلمون من قبل نتيجة لهذه الكارثة ، وسيطر كسيلة زعيم البربر على المغربين الأدنى والأوسط.

زهير بن قيس يثأر لعقبة :

كان زهير بن قيس البلوي من كبار الأبطال الفاتحين ولازم عقبة في غزواته وكان من كبار أعوانه ، وعز عليه مصرع عقبة على يد كسيلة فعزم على الثأر له ، وبالفعل استطاع بعد ست سنوات من مقتل عقبة (٦٩هـ) أن ينتقم له من كسيلة وأن يقتله في معركة ممس ، ولكن زهير نفسه تعرض لكمين كالذي تعرض له عقبة ودفع حياته ثمناً لوفائه لعقبة ، حيث كان الروم أثناء توجه زهير إلى حرب كسيلة قد أغاروا على برقة فقتلوا عددا كبيرا من المسلمين وسبوا وغنموا ، ووافق ذلك قدوم زهير إلى برقة بعد القضاء على كسيلة ، فأخبر بأن الروم أخذوا المسلمين أسرى إلى البحر فأمر عسكره بالسير خلفهم طمعاً في إنقاذ المسلمين ، ولكنهم لم يستطيعوا حيث تكاثر عليهم الروم وقتلوهم وقتل زهير نفسه .

حسان بن النعمان الغساني وفتح شمال إفريقيا :

قلق الخليفة عبد الملك بن مروان قلقاً شديداً وحزن على استشهاد زهير بن قيس وقرر الانتقام من البربر والروم معا فأسند قيادة شمال افريقيا إلى بطل كبير هو حسان بن النعمان الغساني وأمده بجيش كبير استطاع به أن يقضي على نفوذ البيزنطيين في شمال إفريقيا كله ، وأن يحطم مدينة قرطاجنة ويبني بدلها مدينة تونس الحالية ، كما قضى على

الكاهنة التي آلت إليها زعامة البربر بعد مقتل كسيلة ، وكان نصره عليها هذه المرة حاسماً في تاريخ المغرب كله . فقد توالت الانتصارات ، وشهد المسلمون بعد مقتل الكاهنة وجلاء الروم أولى فترات الاستقرار في المغرب ، ولم يكن حسان بن النعمان قائداً عسكرياً ممتازاً فحسب ، بل كان رجل تعمير وإدارة وتنظيم ، ووضع سياسة حكيمة للمغرب انتهت بأهله جميعاً إلى اعتناق الإسلام (٢١٢) .

موسى بن نصير واستكمال فتح العرب :

بعد هذه الأعمال الجليلة التي قام بها حسان بن النعمان عزله عبد العزيز ابن مروان والي مصر ، وولى بدله مولاه موسى بن نصير ، الذي جاء إلي المغرب وقد وطأه له حسان ، وقد واصل هو جهود حسان فاستكمل فتح ما بقى من المغرب ، وبدأ يعده ليكون قاعدة للانطلاق الى العمل الكبير الذي ارتبط باسمه واسم مولاه طارق بن زياد وهو فتح الأندلس .

فتح الأندلس :

يطلق الجغرافيون المسلمون - قديما - كلمة الأندلس على شبه جزيرة أيبريا (٢١٣) . وهي المنطقة التي تشمل في الوقت الحاضر دولتي أسبانيا والبرتغال . وقد استولي الرومان على هذه البلاد سنة ١٤٣م . وفي عهدهم دخلها عدد كبير من اليهود ـ ثم غزاها الوندال في أوائل القرن الخامس الميلادي ، ثم القوط في أوائل القرن السادس الميلادي ، وبلاد الأندلس واسعة وهي تقع في جنوب غرب أوروبا في مقابل ساحل بلاد المغرب ويفصلها عنه المضيق الذي سيعرف بمضيق جبل طارق .

وعندما كان العرب يفتحون الشمال الأفريقي كانت بلاد الأندلس تمر بأسوإ أحوالها من جميع النواحي . السياسية والاجتماعية والدينية . فالطبقة الحاكمة ـ وهم القوط ـ مستبدة تتمتع بكل المميزات ونظام الطبقات يسود المجتمع فعلى القمة يقف النبلاء ويليهم رجال الدين ، وهؤلاء يتمتعون بكل شيء .

أما سواد الشعب فهم محرومون إلا مما يسد رمقهم ويبقيهم أحياء لخدمة النبلاء . أما اليهود فقد كانوا في قاع المجتمع ، وكانت العلاقات بينهم وبين سكان البلاد على أسوإ ما يكون وكانوا موضع الاضطهاد . في ذلك الوقت كان المسلمون قد أكملوا فتح شمال إفريقيا ، وأقاموا فيه نظاماً عادلاً رحيماً ، فتطلع إليهم بعض أهل الأندلس ليخلصوهم مما هم فيه من الظلم والاستبداد ، وجاءت هذه الدعوة على لسان الكونت يوليان ـ حاكم إقليم سبتة على الساحل المغربي . فهو الذي اتصل بطارق بن زياد وعرض عليه فكرة أن يفتح المسلمون الأندلس ، وقد صادفت هذه الدعوة هوى في نفس الأميرموسى بن نصير ، لأن العلاقات بين العرب والقوط لم تكن حسنة ، لأن القوط أظهروا عداءهم للمسلمين حين اشتركوا في الحملة التي أرسلها البيزنطيون لاسترداد قرطاجنة . وقد تطورت الأمور في الأندلس بما يتفق مع دعوة يوليان ، حيث كان الملك قد آل إلى روذريق وقد أغضب ذلك أبناء الملك السابق غيطشة فهجروا الأندلس إلى شمال إفريقيا ، وانضموا إلي يوليان وتحالفوا جميعاً مع المسلمين ضد روذريق ، الذي أتهم بإنتهاك عرض إبنة يوليان ، مماجعل الأخير يحنق عليه ويعمل على زوال ملكه .

لم يكن في وسع الأمير موسى بن نصير أن يقدم على فتح الأندلس دون إذن من الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فأرسل له بمشروعه

وشرح له ظروف الأندلس وهون أمر فتحهاحتى ظفر منه بالموافقة على الفتح .

وعلى الفور أرسل موسى حملة استطلاعية لترتاد البلاد بقيادة طريف بن مالك قوامها خمسمائة جندي ، ونزل طريف في جنوب الأندلس ولم يجد مقاومة تذكر وعاد محملاً بغنائم كثيرة ، وكان ذلك سنة ٩١هـ (٢١٤) .

أثناء إتجاه طريف إلى الأندلس كان موسي بن نصيريعد الجيش الذي سيغزو البلاد والذي عهد بقيادته لمولاه البطل طارق بن زياد ، فلما عاد طريف ظافراً منتصراً شجع ذلك موسى على إرسال طارق على الفور ، وبالفعل إتجه طارق بجيشه البالغ عدده سبعة آلاف جندي . وعبر المضيق الذي سيحمل اسمه في شهر رجب سنة ٩٢ هـ . واستولى على الجبل وما حوله (٢١٥) وبدأ يتوغل في البلاد .

في تلك الأثناء كان روذريق ملك الأندلس مشغولاً بقمع ثورة في الشمال ، فما أن علم بنزول المسلمين في جنوب بلاده حتى أسرع للقائهم على رأس جيش قدر بمائة ألف جندي ، وما أن أحس طارق بقدوم الملك حتى بدأ يستعد ثم طلب مداداً من موسي بن نصير فأمده بخمسة آلاف جندي ، فأصبح جيشه اثنى عشر ألفاً ، فارق كبير في العدد بين جيشه وجيش القوط ، ولكن المسلمين في تلك الأزمان كانوا يقاتلون بروح معنوية عالية لأنهم كانوا يجاهدون في سبيل الله ، فمعنوياتهم العالية كانت تعوضهم عن النقص في الأعداد .

وباختصار دارت المعركة الفاصلة بين طارق وروذريق عند قرية شذونة في وادي لكة في آخر رمضان سنة ٩٢هـ واستمرت ثمانية

أيام (٢١٦) ، واسفرت عن نصر مؤزر للمسلمين وهزيمة ساحقة للقوط ، وبدد جيشهم ، ولقى روذريق مصرعه . ولا نبالغ إذا قلنا أن معركة شذونه قد قررت مصير الأندلس لصالح المسلمين ، لأن مقتل ملك القوط واندحار جيشه في هذه المعركة أضعف روحهم المعنوية ، وسار طارق يفتح في بقية البلاد ، فاستولى على عدة مدن هامة مثل قرطبة وغرناطة وطليطلة التي كانت عاصمة البلاد .

وهنا أدرك طارق أن الجبهات اتسعت أمامه فأرسل إلى موسى بن نصير يطلب مدداً (٢١٧) . ولكن موسي قرر أن يذهب هو بنفسه ليكون له شرف المشاركة في فتح الأندلس ، وقاد جيشاً كبيراً قوامه ثمانية عشر ألفاً ، وكان ذلك سنة ٩٣هـ حيث عبر موسى المضيق واتجه ليفتح المناطق التي لم يكن طارق قد فتحها في غرب البلاد مثل قرمونة وأشبيلية ، وأخيراً التقى بطارق بن زياد في طليطلة ، وهنا تتحدث بعض المصادر عن خلاف حدث بين طارق وموسى ، وأن موسى أهان طارقاً (٢١٨) . ولكن بعد التمحيص يتضح أن ذلك غير صحيح ، بدليل أن البطلين بعد أن التقيا في طليطلة اتفقاً على استكمال فتح الأندلس ، فقد خرج طارق من طليطلة على مقدمة الجيش ومن خلفه موسى في بقية الجيش متجهين إلى المناطق الشمالية الشرقية من البلاد ، حيث فتحا مدنا مهمة مثل سرقسطة ، وبرشلونه ، ثم سار بعد ذلك طارق إلى إقليم جلليقية في الشمال الغربي ، بينما سار موسى إلى البرنية ، حيث غزا سبتمانية ، الذي كان تابعاً للقوط ، ثم استولي على قرقشونة وأربونه ، وحصن لودون على وادي ردونة ـ الرون ـ (٢١٩) .

وهكذا في خلال ثلاث سنوات (٩٢ - ٩٥هـ) استطاع طارق وموسى بن نصير أن يفتحا الأندلس ، عدا الإقليم الشمالي الغربي وهو

إقلم جبلي استعصى عليهم ، أو أقل هم أهملوا شأنه ، ولعلهم لم يدركوا أن يكون هذا الإقليم الوكر الذي ستخرج منه المقاومة النصرانية فيما بعد .

* * *

فتح بلاد ما وراء النهر

امتدت الفتوحات في العصر الأموي فشملت بلاد ما راء النهر ، وهو اسم أطلقه المؤرخون والجغرافيون المسلمون على المنطقة المحصورة بين نهري جيحون في الجنوب ، وسيحون في الشمال ، وتقع هذه البلاد إلى الشمال الشرقي من حدود الدولة الفارسية القديمة ، وسكان هذه البلاد من العنصر التركي الذي انحدر إليها من الشرق منذ القرن السادس الميلادي ، وكونوا لهم عدة ممالك فيها ، من هذه الممالك :

١ ـ مملكة طخارستان ، وعاصمتها بلخ ، وتقع على ضفتي نهر جيحون [٢٢٠] .

٢ ـ مملكة الختل ، وعاصمتها هلبك ، وهي أول مملكة وراء نهر جيحون [٢٢١] .

٣ ـ مملكة صغانيان ، وعاصمتها صغانيان أيضا [٢٢٢] .

٤ ـ مملكة الصغد ، وعاصمتها سمرقند ، ويقال هما : صغدان ، صغد سمرقند ، وصغد بخاري [٢٢٣] .

٥ ـ مملكة خوارزم ، وعاصمتها الجرجانية [٢٢٤] .

هذه هي الممالك والبلاد التي أتم المسلمون فتحها في خلافة الوليد ابن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ) حتى وقفوا عند حدود الصين ، وفي الواقع أن المسلمين منذ أتموا فتح بلاد فارس في عهد الخلفاء الراشدين أصبحوا مجاورين لهذه البلاد من الجنوب ، كما أن الأتراك سكان هذه البلاد أظهروا عداءهم للمسلمين من البداية ، حيث تعاونوا مع الملك

الفارسي كسرى يزدجرد الثالث أثناء محاولته طرد المسلمين من بلاده ، لذلك فإن المناوشات بين المسلمين وبين الأتراك سكان هذه البلاد بدأت منذ عهد معاوية بن أبي سفيان ، خصوصاً بعد أن أسند ولاية خراسان إلى زياد بن أبي سفيان ثم لابنه عبيد الله من بعده ، الذي وصلت غزواته إلى بخاري وسمرقند (٢٢٥) . ثم توالت الحملات على هذه البلاد في عهد معاوية ، لا بقصد الفتح المنظم والاستقرار ، ولكن بقصد ارتياد البلاد ومعرفتها والتجرؤ عليها تمهيدا للفتح المنظم حين يأتي أوانه ، كما أن عبور نهر جيحون وغزو الأتراك وراءه الذي بدأ منذ بداية عهد معاوية يدل على نجاح المسلمين في تثبيت الفتوحات في بلاد فارس ، وأن خراسان التي كانت أكثر الأقاليم الفارسية مقاومة للمسلمين لم تستكن لهم وتنضوي تحت حكمهم فحسب ، بل أصبحت منطلقهم إلى بلاد ما وراء النهر ، كما خطط لذلك معاوية وزياد بن أبي سفيان .

لكن ما أن توفي معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٠هـ حتى توقف غزو هذه البلاد بسبب الفتن والثورات والحروب الداخلية التي حدثت في الدولة الإسلامية ، وسوف تمضي سبع عشرة سنة تقريبا قبل أن يتمكن المسلمون من استئناف غزواتهم لهذه البلاد ، وقد تم ذلك في خلافة عبد الملك بن مروان ، حين أسند حكم العراق والمشرق كله إلى الحجاج ابن يوسف الثقفي ، الذي يجب أن يذكر له الفضل الأكبر في توجيه الفتوحات الإسلامية في بلاد ما وراء النهر والسند ، فهو الذي وقف وراء هذه الحركة المجيدة ، واختار لها كبار القادة المشهورين بالبطولة والشجاعة .

ومن هؤلاء القادة الذين عهد إليهم الحجاج بفتح بلاد ما وراء

النهر القائد المجـرب البطل المهلب بن أبي صفرة ، الذي عينه الحجاج والياً على خراسان سنة ٧٨هـ ، فبدأ غـزوه لبلاد ما وراء النهـر سنة ٨٠هـ [٢٢٦] ، وكانت له غزوات ناجحة فيها ، ولكن المسلمين لم يستقروا في هذه البلاد بعد ، وقد توفي المهلب سنة ٨٢ هـ ، فخلفه على خراسان ابنه يزيد بن المهلب ، الذي واصل غزوات أبيه لبلاد ما وراء النهر حتى وصل إلى خوارزم [٢٢٧] ، ولكن الفتح لم يأخذ طابع الاستمرار والاستقرار في هذه البلاد إلا على يد البطل قتيبة بن مسلم .

فتوحات قتيبة بن مسلم فيما وراء النهر :

ولي قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان ـ من قبل الحجاج ـ سنة ٨٥هـ ، وهو واحد من الأبطال الشجعان ، ذوي الحزم والدهاء والرأي والغناء ، ويعتبر بحق من أعظم القادة الفاتحين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي بعامة ، وتاريخ الدولة الأموية بخاصة [٢٢٨] ، ففي خلال عشر سنين (٨٦ - ٩٦هـ) فتح أقاليم شاسعة ، « وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، فأسلموا ودانوا لله عز وجل » على حد قول ابن كثير [٢٢٩] .

وقد حمل قتيبة راية الفتوحات الإسلامية في بلاد ما وراء النهر في وقت ملائم تماماً ، وأفـاد من جهود القادة الذين سبقوه ومهدوا لـه الطريق ، كما كان يستند إلى والي العراق القوي الحازم اليقظ ، الحجاج ابن يوسف الثقفي ، الذي اختاره لهذه المهمة ، ووضع ثقته فيه ، وواصل تشجيعه وإمداده بالرجال ، وكان من حسن حظ قتيبة أن ولايته على خراسان ، واضطلاعه بمهمة الفتوحات فيما وراء النهر جاءت في وقت كانت الدولة الأموية قد تغلبت على جميع مناوئيها واستقرت أمورها ،

وأصبحت قادرة على استئناف الفتوحات ، فاجتمعت لقتيبة شجاعة القائد وإقدامه ، وعزم الوالي (الحجاج) وتصميمه ، وقوة الدولة ، فكانت أعماله الرائعة فيما وراء النهر .

ولقد كان قتيبة يدرك أهمية العمل المقدم على تنفيذه ـ وهو فتح أقاليم ما وراء النهر ـ ، ولا بد أنه ناقش تفاصيل المشروع مع الحجاج قبل أن يتوجه إلى خراسان ، واستعرض معه كل الوسائل التي تكفل له النجاح .

وقد برهن قتيبة على أنه لم يكن قائدا عسكريا فحسب ، وإنما كان رجل إدارة وسياسة وتنظيم من الطراز الأول ، كما برهن على معرفة عميقة بأحوال خراسان قبل أن يصل إليه ، فقد كانت رياح الخلافات والعصبيات العربية قد هبت عليه ، من جراء التنافس على الولاية ، فكان على قتيبة أن يعمل على القضاء على هذه الخلافات ، وأن يجعل العرب يتناسون العصبيات ويرتفعون فوقها ، ويذكرهم برسالتهم السامية ، ويعدهم للجهاد في سبيل الله ، فأول ما وصل خراسان جمع الزعماء العرب ، وخطب فيهم خطبة ذكرهم فيها برسالتهم الإسلامية ، رسالة العدل والرحمة والمساواة ، وأهاب بهم أن يضحوا في سبيلها ، وأن يوطنوا أنفسهم على تحمل المشقات ، على السير في طريق أسلافهم العظام ، طريق الجهاد لنصرة دين الله ، والنتيجة مضمونة بيقين ، وهي العزة في الدنيا ، والفوز بالجنة في الآخرة (٢٣٠) .

وقد نجح قتيبة في توحيد صفوف العرب تحت راية الجهاد ، كما عمل على كسب ثقة الخراسانيين وودهم ، فأحسن إليهم وقربهم وعهده إليهم بالوظائف (٢٣١) ، وبذلك ضمن تعاونهم معه لتحقيق أهدافه ،

وهذه بداية سليمة تدل على ذكاء وخبرة ومقدرة إدارية كبيرة .

مراحل فتح بلاد ما وراء النهر :

لا يسمح لنا الوقت هنا بتتبع خطوات قتيبة - خطوة خطوة - في فتوحاته التي استمرت حوالي عشر سنين (٨٦ - ٩٦هـ) ، والتي فتح فيها المنطقة الواقعة بين نهري جيحون وسيحون بأكملها ، ثم عبر نهر سيحون ، وفتح عدة أقاليم خلفه حتى وصل إلى إقليم كاشغر مُلامساً بذلك حدود الصين ، كما كان من العسير ذكر تلك الفتوحات بالتفصيل في هذا الحيز الضيق ، فإننا نشير إلى المراحل الكبرى في هذه الفتوحات ، وهي :

المرحلة الأولى ٨٦ - ٨٧هـ :

وفيها أخضع قتيبة إقليم طخارستان ، الذي يقع على ضفتي نهر جيحون ، والذي يبدو أن أوضاعه لم تستقر للمسلمين منذ فتحه الأول على يد الأحنف بن قيس في خلافة عثمان بن عفان (٢٣٢) .

فكان على قتيبة أن يخضع هذا الإقليم لسلطان المسلمين قبل أن يمضي في فتوحاته فيما وراء النهر ، لأن الفتح فيما وراء النهر لم يكن ممكنا بدون سيطرة المسلمين على طخارستان (٢٣٣) ، فبعد أن استتب له الأمر في خراسان خلف عليها إياس بن عبد الله وسار هو إلى طخارستان ، فما قطع النهر حتى أتاه ملوكها طائعين مستسلمين طالبين الصلح ، فصالحهم وترك أخاه صالح بن مسلم على الجند ، وعاد هو إلى خراسان (٢٣٤) .

واضح أنه أصبح لقتيبة هيبة كبيرة في هذه البلاد ، حتى أن ملوكها ما كادوا يسمعون بمسيره إليهم حتى أسرعوا بالاستسلام وطلب الصلح ، وبهذا دانت طخارستان للمسلمين بشكل نهائي لأول مرة ، وأصبح قتيبة قادراً على الانطلاق في فتوحاته فيما وراء النهر من على أرض صلبة .

المرحلة الثانية ٨٧ - ٩٠هـ :

وفي هذه المرحلة فتح قتيبة إقليم بخاري بعد حروب طاحنة وصدامات مريرة مع أهل البلاد ، وقد استمرت حملاته عليهم بانتظام كل سنة ، وكان الغزو يتم في فصل الصيف ، فإذا دخل الشتاء ببرده القارس عاد إلى مرو واستمر هكذا حتى دان له الإقليم بأكمله . والواقع أن أهل الإقليم قاوموا المسلمين ودافعوا عن بلادهم دفاعا بطوليا ، لأنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة الإسلام ، وما يحمله إليهم من خير وعدل ورحمة ومساواة ، فلما عرفوا ذلك بعد مخالطتهم المسلمين أقبلوا على اعتناق الإسلام ، وصاروا من خيرة أتباعه والمدافعين عنه ، يقول المستشرق المجري أرمينيوس فاميري : « إن بخاري التي قاومت العرب في البداية مقاومة عنيفة ، قد فتحت لهم أبوابها لتستقبلهم ومعهم تعاليم نبيهم ، تلك التعاليم التي قوبلت أول الأمر بمعارضة شديدة ، ثم أقبل القوم عليها بعد ذلك في غيرة شديدة ، حتى لترى الإسلام الذي أخذ شأنه يضعف اليوم في جهات آسيا الأخرى ، وقد غدا في بخاري اليوم - ١٨٧٣م - على الصورة التي كان عليها أيام الخلفاء الراشدين » (٢٣٥) .

المرحلة الثالثة ٩٠ - ٩٣هـ :

وهي المرحلة التي فرض فيها قتيبة السيادة الإسلامية على حوض نهر جيحون وتوج عمله في هذه المرحلة بالاستيلاء على مدينة سمرقند أعظم المدائن في بلاد الصغد ، بل في آسيا الوسطى كلها .

المرحلة الرابعة ٩٣ - ٩٦هـ :

وفي هذه المرحلة عبر قتيبة نهر سيحون - بعد أن بسط سلطانه على أقاليم ما بين النهرين - وفتح أقاليم الشاش وفرغانة وكاشغر ، والأخيرة كانت خاضعة للصين ، وقد تهيأ قتيبة لفتح الصين ، وأرسل إلى ملكها وفداً برئاسة هبيرة الكلابي يعرض عليه الإسلام أو الجزية أو القتال[٢٣٦]، لكن وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ ومن قبله وفاة الحجاج سنة ٩٥هـ جعلت قتيبة يتوقف عند هذا الحد ، وحسبه أنه في خلال عشر سنين قد ضم إلى رقعة الدولة الإسلامية هذه الأقاليم الشاسعة ، ورفع راية الإسلام على حدود الصين ، وهيأ هذه البلاد لتصبح أجزاء هامة من العالم الإسلامي ، نشأت فيها مراكز علمية وحضارية عظيمة مثل بخاري وسمرقند وترمذ وجرجان وغيرها - تلك المراكز التي خرجت كبار علماء الإسلام الذين ملأت أسماؤهم سمع الدنيا .

* * *

فتح إقليم السند

يقع إقليم السند في شمال غرب شبه القارة الهندية ، وشرق بلاد فارس الجنوبية ، وهو يكون جزءاً من دولة باكستان الحالية .

بعد أن استقام الأمر للمسلمين في جنوب فارس ، وقضى الحجاج ابن يوسف الثقفي على تمرد رتبيل ملك سجستان ، وأخضع بلاده للسيادة الإسلامية ، بدأ يعد العدة لفتح إقليم السند ، الذي يعتبر فتحه شبيها بفتح أقاليم ما وراء النهر في عدة وجوه ، منها وحدة الزمان ، فقد بدأ المسلمون فتوحاتهم في هذا الإقليم سنة ٨٩هـ أي بعد عامين من بداية فتوحات قتيبة في بلاد ما وراء النهر ومنها وحدة القيادة العامة ، الممثلة في شخصية والي العراق والمشرق ، الحجاج بن يوسف الثقفي ، فكما كان الحجاج وراء قتيبة يدفعه ويشجعه ويمده بالرجال والتوجيه ، فكذلك كان هو نفسه الذي وجه صهره وابن عمه محمد بن القاسم الثقفي لفتح إقليم السند ، وكان الحجاج هو القوة المحركة وراء القائدين العظيمين ، وكما سبق الفتح المنظم لبلاد ما وراء النهر سلسلة من الحملات والغزوا التي قام بها المسلمون للتعرف على طبيعة البلاد ، واكتساب المزيد من الخبرة عن أحوالها والتجرؤ عليها ، استعداداً للمعارك الحاسمة والفتح المنظم حين يجيء أوانه ، فكذلك حدث الشيء نفسه في إقليم السند ، فقد طرق المسلمون أبواب هذا الإقليم منذ أن فتحوا جنوب بلاد فارس في عهد عمر بن الخطاب ﷺ ، ويمدنا البلاذري في كتابه فتوح البلدان بمعلومات مستفيضة عن غزوات المسلمين وحملاتهم على إقليم السند منذ عهد عمر بن الخطاب ، وتلك الحملات والغزوات التي لم تكد تنقطع والتي أدت دورها تماماً في

تعريف المسلمين بطبيعة الإقليم وأحوال أهله والظروف السائدة فيه ، حتى جاء أوان فتحه المنظم على يد محمد بن القاسم الثقفي ، الذي جعله جزءاً من الدولة الإسلامية .

محمد بن القاسم الثقفي وفتح السند (٨٩ - ٩٦هـ) :

كما تسلم قتيبة بن مسلم الراية لفتح بلاد ما وراء النهر في وقت ملائم تماما ، فقد جاء تسلم محمد بن القاسم الراية لفتح إقليم السند في وقته أيضا ، لأن الذين سبقوه من القادة غزوا هذا الإقليم قد مهدوا له الطريق ، وقدر لهذا الشاب البطل أن يفتح السند وأن يرتبط ذلك باسمه ، رأى الحجاج بن يوسف - بعد أن استقرت أحوال الدولة الأموية - أن مرحلة الحملات الخاطفة قد أدت دورها وأن أوان العمل الحاسم والفتح الكامل قد حان ، فاختار لهذه المهمة ابن عمه الشاب محمد بن القاسم ، الذي أظهر من البطولة والشجاعة والعبقرية العسكرية ما يضعه في مصاف كبار الفاتحين والقادة العسكريين .

وقد اهتم الحجاج بأمر الحملة اهتماماً كبيراً ، وأعدها الإعداد الجيد الذي يكفل لها النجاح ، من حيث العدد والعدة وأدوات الحصار ، ففوق ما كان مع محمد بن القاسم من قوات في فارس فقد أمده الحجاج بستة آلاف من أهل الشام ، وخلق من غيرهم - على حد تعبير البلاذري(٢٣٧)، وقد جهز الحجاج الجيش بكل احتياجاته ، حتى الخيوط والمسالي ، ولم ينس أمر الطعام ، حتى الخل أمرهم أن يأخذوه معهم منقوعاً في القطن المحلوج لأنه قليل بالسند .

بعد أن استكمل القائد البطل عدته وتكامل جيشه انتقل إلى

مكران - في جنوب بلاد فارس - التي ستكون نقطة انطلاقه ، وقاعدة الفتح .

قسم محمد بن القاسم جيشه قسمين ، قسم بري وقسم بحري ، ثم تحرك من مكران قاصداً الديبل (٢٣٨) ، ففتح في طريقه قنزبور وأرمائيل ، وفيها وافته السفن التي كانت تحمل السلاح والرجال والأداة ، فسار إلى الديبل وحاصرها ، وفي النهاية استولى عليها بعد قتال استمر ثلاثة أيام ، ثم ترك فيها أربعة آلاف من المسلمين وبنى لهم مسجداً ، وهذا يدل على نية الاستقرار في هذه المدينة التي جعلها قاعدة بحرية للمسلمين في المحيط الهندي ، كان استيلاء محمد بن القاسم على الديبل ذا أثر كبير على المسلمين وأهل السند جميعاً ، فقد أسرعوا إلى الفاتح المسلم وطلبوا منه الصلح فصالحهم ورفق بهم ، ثم سار إلى البيرون فتلقاه أهلها وصالحوه ، وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها صلحاً أو عنوة ، وتوج ذلك كله بانتصاره العظيم على داهر ملك السند في المعركة الفاصلة التي دارت بينهما .

ثم سار بعد ذلك ليستكمل فتح الإقليم كله ، فاستولى على حصن روار ، ثم برهمناباذ والرور وبغرور ، ثم اجتاز نهراً يسمى نهر بياس إلى الملتان فاستولى عليها بعد حصار وقتال شديد ، واستولى منها على كمية كبيرة من الذهب ، وفي الملتان وصل محمد بن القاسم خبر موت الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٩٥هـ فاغتم لذلك غماً شديداً ، وحزن على موته لأنه كان سنده وعونه ، ولكن رغم ذلك اجتاز الموقف وارتفع فوق الأحزان ، وسار في فتوحاته حتى أصبح وادي السند بأسره في قبضته ، وجاءته القبائل تقرع الأجراس فرحة هاتفة مرحبة به ، فقد

حررهم الفتح الإسلامي من استبداد الهندوس وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وكان على رأس المرحبين بالفتح الإسلامي قبائل الميد والجات ـ الزط ـ (٢٣٩) .

وبينما محمد بن القاسم يمضي في فتوحاته محققاً تلك الأمجاد العظيمة في هذه السن المبكرة توفي الخليفة بن عبد الملك سنة ٩٦هـ ، وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك ، فعين على العراق رجلاً من ألد أعداء الحجاج ؛ وهو صالح بن عبد الرحمن ، الذي قرر أن ينتقم من الحجاج ـ الذي كان قد توفي قبل ذلك بعام ـ في شخص ابن عمه محمد ابن القاسم ، فعزله عن ولاية السند ، ولم يكتف بذلك بل قبض عليه وأودعه السجن وظل يعذبه حتى مات ، وهكذا انتهت حياة بطل عظيم وفاتح كبير هذه النهاية الأليمة ، وحرمت الدولة من هذه العبقرية الشابة ، والملفت للنظر أن هذا البطل الذي قتله المسلمون حزن عليه أهل السند وبكوه وأقاموا له التماثيل (٢٤٠) .

* * *

الفصل الرابع

الأحزاب والثورات المعادية لبني أمية

في الصفحات السابقة تحدثنا بإيجاز شديد عن الانجازات العظيمة التي حققها الأمويون في ميدان الفتوحات ، ورأينا البطولات والأبطال الذين مدوا حدود الدولة الإسلامية إلى آفاق بعيدة ، من حدود الصين شرقاً حتى الأندلس غربا ، ومن آسيا الوسطى شمالاً حتى المحيط الهندي جنوباً ، والأهم من ذلك أن تلك الفتوحات لم تكن غزواً عسكريا للأمم والشعوب ، وإنما كانت فتحاً دينياً وحضارياً ، حيث عمل الأمويون على تهيئة البلاد المفتوحة بالتدريج لنشر الإسلام فيها وإذابة شعوبها في بوتقة الأمة الإسلامية ، والحق أن الشعوب المفتوحة وإن كانت قد أبدت نوعاً من المقاومة للفتح الإسلامي في البداية ، إلا أنها لم تكد تتعرف على طبيعة الإسلام وأهدافه وتخالط المسلمين وتتعامل معهم حتى تخلت عن كل موروثاتها السابقة ، وأقبلت على اعتناق الدين الإسلامي واللغة العربية وآدابها ، وأن أي منصف لا يملك إلا أن يذكر الأمويين بالتقدير والثناء لجهودهم في هذا المجال ، وأن الإعجاب بهم والتقدير لهم يزداد عندما نعرف أنهم لم يقوموا بكل تلك الأعمال الرائعة في جو صاف خال من المشاكل والثورات ، بل إنهم واجهوا خلال حكمهم العديد من حركات المعارضة والثورات العنيفة ، وكان لهم خصوم أقوياء ناصبوهم العداء طوال حياة دولتهم ، ولكن كل ذلك لم يمنعهم من تحقيق تلك الأمجاد وصنع هذه الانجازات .

وفي الصفحات التالية سنحدثك ـ بإيجاز شديد ـ عن أهم

الأحزاب والثورات وحركات المعارضة التي هبت في وجه الدولة الأموية ، وبددت جزءاً كبيراً من طاقتها وامكانياتها ، وكبدتها كثيراً من الأموال والأرواح .

ثورات الشيعة ضد الدولة الأموية

ثورة الحسين بن علي على يزيد بن معاوية :

كلمة الشيعة لها معاني عديدة ، منها الأهل والأتباع والأنصار والأمثال ... إلخ ، ولكن التسمية غلبت على أنصار علي بن أبي طالب ﷺ وأهل بيته [٢٤١] .

ولم يقم الشيعة بأية ثورة مسلحة طوال خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠هـ) لحسن سياسته وإحسانه إلى زعمائهم ، ولكن لم يكد معاوية يفارق الحياة حتى تفجرت في وجه خلفه ثورة الشيعة بقيادة الحسين بن علي ﷺ .

كان الحسين عند وفاة معاوية بالمدينة المنورة ، فأرسل إليه والي المدينة ـ الوليد بن عقبة بن أبي سفيان ـ ليأخذ منه البيعة ليزيد ، ولكن الحسين لم يبايع ليزيد واستطاع الذهاب إلى مكة ، حيث بدأت تتوالى عليه رسائل أهل الكوفة من شيعة أبيه يطلبون منه السير إليهم ليبايعوه خليفة ، وبدأ الحسين ينظر قبوله لدعوة أهل الكوفة ، خصوصاً وأن رسائلهم كانت تفيض عاطفة وحماسة [٢٤٢] ، ولكن عقلاء بني هاشم ، وخصوصاً عبد الله بن عباس ، الذي يعرف أهل الكوفة حق المعرفة ، والذي رأى خذلانهم لعلي بن أبي طالب نفسه ولإبنه الحسن ، نصح الحسين بعدم الذهاب إلى الكوفة ، وألح عليه في ذلك ، ولكن الحسين

لم يصغ لنصيحة عبد الله بن عباس ، وعزم على الذهاب إلى الكوفة ، ولكنه قبل أن يشخص إليها بنفسه أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليلتقي بأهل الكوفة ويستطلع الموقف بنفسه ويكتب إليه بما يراه . وصل مسلم إلى الكوفة ، وعلم الشيعة بوصوله ، فتسارعوا إليه ، وبايعه منهم حوالي ثمانية عشر ألفاً ، اطمأن مسلم إلى أهل الكوفة ، أو قُل انخدع بحماسهم وبيعتهم ، فأرسل إلى الحسين ليسير إليه ، وكان هذا تسرعاً من مسلم ، إذ كان عليه أن ينتظر حتى يتأكد من صدق أهل الكوفة وجدية بيعتهم ، لأنه بينما كان هو يكتب إلى الحسين يستدعيه للحضور إلى الكوفة ، كان بعض أنصار الأمويين قد كتب إلى يزيد بأمر وصوله إلى الكوفة وتقاعس واليها النعمان بن بشير الأنصاري عن التصدي له ، ويقولون له إذا كان له بالكوفة حاجة فليعزل عنها النعمان ابن بشير ، ويعين واليا آخر أكثر حزماً ، وأدرك يزيد خطورة الموقف ، وعزل النعمان بن بشير ، وأسند ولاية الكوفة إلى عبيد الله بن زياد ، وأمره بالقبض على مسلم وقتله ، وعلى الفور وصل عبيد الله إلى الكوفة وقبض على مسلم وقتله شر قتلة ، وتخلى عنه أهل الكوفة وأسلموه إلى مصيره المحزن ، ولم يجد نصيراً من بين الآلاف الذين كانوا قد بايعوه .

خروج الحسين إلى الكوفة :

كان على الحسين ـ وقد أرسل مسلم ليستطلع له الأمر في الكوفة ـ أن ينتظر حتى تتضح الأمور ، وليعرف عزم أصحابه قبل أن يصل إليهم ، ولكنه ما كادت تصل إليه رسالة مسلم بن عقيل حتى تجهز للمسير ، ولم يكن معه إلا عدد قليل من الرجال ـ حوالي سبعين رجلاً ـ وأهل بيته من النساء والصبية ، فلما وصل إلى القادسية لقيه الحر بن يزيد التميمي

فأخبره بمقتل مسلم بن عقيل وأشار عليه بالرجوع وقال له : « لم أدع خلفي خيراً أرجوه لك » ، وكذلك التقى الحسين بالفرزدق الشاعر ، وأخبره الخبر نفسه ، ولقد هم الحسين بالرجوع ، ولكن للأسف الشديد أن أخوة مسلم بن عقيل أبوا الرجوع وقالوا له : « والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل كلنا ، فقال الحسين : لا خير في الحياة بعدكم » . إن الإنسان لتأخذه الدهشة والعجب من موقف أخوة مسلم ومنطقهم في الأخذ بثأر أخيهم ، فهم يعلمون أن الذي قتل أخاهم الدولة ، فهل كان في مقدورهم ـ وهم في هذا العدد القليل ـ أن يتصدوا للدولة ليثأروا منها ، الحق أنه منطق عجيب ، فقد عرضوا أنفسهم وابن عمهم للهلاك ـ رحمهم الله جميعاً .

لم يكن في وسع الحسين أن يرجع دون أولاد عمه ، فسار معهم حتى وصلوا كربلاء ، ليجدوا جيشاً أمويا في انتظارهم بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص ، وعسكر الفريقان قريبا من بعضهما ، وهنا بدرت من الحسين ﷺ بادرة طيبة لو قد لها أن تنجح لكان فيها حقن للدماء ، ودم الحسين بصفة خاصة ، فقد عرض على عمر بن سعد عرضا فيه السلامة وقال له : « إما أن تدعوني فأنصرف من حيث جئت ، وإما أن تدعوني فأذهب إلى يزيد ، وإما أن تدعوني فألحق بالثغور » .

وكانت هذه فرصة نادرة لمنع الكارثة ، إلا أن عبيد الله بن زياد رفض هذا ، وأبى ألا يسلم الحسين له نفسه أسيراً ، ولكن الموت كان أهون على الحسين ﷺ من أن يسلم نفسه أسيراً لعبيد الله ، فأبى ذلك بحزم وقال : « لا والله لا يكون ذلك أبداً » (٢٤٣) .

والحقيقة لا يستطيع أي إنسان أن يلوم الحسين على موقفه هذا ،

ولا ينتظر من ابن بنت رسول الله أن يسلم نفسه أسيراً ، بل اللوم كل اللوم يقع على عبيد الله بن زياد ، الذي تحجر قلبه ، وبرهن على قصر نظر سياسي فاضح ، وتسبب في حدوث كارثة من أبشع ما شهد التاريخ الإسلامي من كوارث ، ولا يدري الإنسان كيف غفل ابن زياد عن أن قتل الحسين سوف يزعزع كيان الدولة الأموية ، ويشحن قلوب المسلمين بالبغض ليزيد .

رفض الحسين أن يسلم نفسه أسيراً لابن زياد فدارت المعركة المشئومة في كربلاء ، وكانت معركة غير متكافئة حيث قتل الحسين وسائر أصحابه ومنهم سبعة عشر شابا من أهل بيته ، وكان آخر كلامه قبل أن يسلم روحه الطاهرة : « اللّهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا » (٢٤٤) . وذلك إشارة واضحة إلى خذلان أهل الكوفة وجبنهم ، فهم شركاء في جريمة قتل الحسين بدون شك ، لأنهم دعوه وأسلموه لأعدائه وقتل أمام أعينهم ، بل كثيرون من الذين أرسلوا إليه اشتركوا في قتله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

كان استشهاد الحسين ﵁ في العاشر من المحرم سنة ٦١هـ ، وإذا كنا قد ألقينا مسئولية مقتله على عاتق عبيد الله بن زياد وعلى أهل الكوفة ، فما هو نصيب الخليفة يزيد بن معاوية من المسئولية عن هذا الحادث الخطير ، الواقع أن يزيد لم يأمر بقتل الحسين ، بل كان حريصاً على عدم خروج الحسين أصلاً وقد أرسل إلى ابن عباس في ذلك (٢٤٥)، لأنه يعرف أثر مقتل الحسين عليه وعلى دولته ، كما أن أباه كان قد أوصاه بالعفو عن الحسين إن هو خرج عليه ، ولو أن عبيد الله بن زياد سمح للحسين بالذهاب إلى يزيد في دمشق لكان من الجائز أن يتغير

الموقف كله ، ولكن مع ذلك كله كان على يزيد أن تكون تعليماته صريحة وواضحة لعبيد الله بن زياد في عدم التعرض للحسين بأذى ، فضلاً عن قتله ، ولذلك هو يتحمل جزءاً من المسئولية من هذه الناحية .

ثورة التوابين :

التوابون هم مجموعة من الشيعة كان كثيرون منهم ممن كتبوا إلى الحسين ﷺ ليسير إليهم في الكوفة ، فلما سار إليهم خذلوه وتخلوا عن نصرته ، وأسلموه للمصير المؤلم الذي صار إليه - كما تقدم ذكره - ولكنهم بعد استشهاده أدركوا عمق خطأهم في حقه ، وعضهم الندم على تقصيرهم نحوه ، ولم يجدوا طريقة يكفرون بها عن ذلك التقصير ، ويتوبون إلى الله من هذا الذنب العظيم سوى الثأر له من قتلته ، فسموا بذلك التوابون (٢٤٦) ، وتزعمهم رجل منهم يدعى سليمان بن صرد ، وسموه أمير التوابين ، ومع أن حركتهم بدأت عقب استشهاد الحسين مباشرة ، إلا أنهم لم يستطيعوا التحرك في حياة يزيد لشدة عبيد الله بن زياد وإحكام قبضته عليهم في الكوفة ، فلما مات يزيد في مطلع عام ٦٤هـ واضطرب أمر الدولة الأموية وسادت الفوضى في العراق نشطوا وأسرعوا الخطى لتنفيذ خطتهم ، وعبأهم سليمان بن صرد وسار بهم في ربيع الآخر سنة ٦٥هـ إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد ، المسئول المباشر عن مقتل الحسين ، وكعادة أهل العراق في التخاذل عن الجد ، فقد تخلى معظمهم عن سليمان بن صرد ، فلم يسر معه سوى أربعة آلاف من ستة عشر ألفاً كانوا قد بايعوه على الأخذ بثأر الحسين .

فلما التقى بجيش عبيد الله بن زياد في عين الوردة - من أرض الجزيرة - دارت معركة غير متكافئة ، حيث كان جيش عبيد الله يفوقهم

عددا بكثير ، فهزم التوابون وقتل معظمهم ، كما قتل زعيمهم سليمان ابن صرد ، وهكذا انتهت حركة من حزكات الشيعة الطائشة ، التي دفع إليها الحماس الكاذب ، ولم يكن فيها شيء من العقل أو التبصر ، ولم تكن لها نتيجة سوى المزيد من سفك الدماء ، وتعميق الأحقاد بين المسلمين .

ثورة المختار الثقفي (٢٤٧) :

يعتبر المختار بن أبي عبيد الثقفي من أخطر الشخصيات التي ظهرت في العصر الأموي ، ولقد برز على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ ، وأخذ يبحث له عن دور يوصله إلى الحكم والسلطان بأي ثمن ، فتقلب من العداء الشديد لآل البيت ، إلى ادعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين ، ثم حاول الاتصال بعبد الله بن الزبير والانضمام رليه ، وشرط عليه شروطاً ، منها أن يكون أول داخل عليه ، وألا يقضي الأمور دونه ، وأن يستعمله على أفضل ولاياته ، وباختصار أراد أن تكون له كلمة مسموعة في دولته ، ولكنه لم يجد تجاوباً من ابن الزبير ، فتركه وذهب إلى الكوفة ، وهناك وجد الجو مناسباً ليلعب لعبته ، وقد قوي مركزه بما حل بالشيعة في موقعة عين الوردة ، بحيث لم يجدوا لهم زعيماً بعد مقتل سليمان بن صرد ، فالتفوا حول المختار ، وركب هو تيار الشيعة ، وحالفه الحظ في الانتصار على عبيد الله بن زياد في معركة نهر الخازر بقرب الموصل بالعراق سنة ٦٧هـ حيث تمكن جيشه من قتل عبيد الله بن زياد ، ومعظم الذين اشتركوا في مقتل الحسين ابن علي ، وبذلك تعاظم نفوذ المختار ، وسيطر على شمال العراق والجزيرة ، وبهذا أقام له دولة بين دولتي ابن الزبير في الحجاز وعبد الملك

ابن مروان في الشام ، وكان المتوقع أن يتحرك عبد الملك بن مروان للقضاء على المختار والثأر لهزيمة جيشه في معركة الخازر ، ولكن عبد الملك كان من الذكاء والدهاء بحيث ترك هذه المهمة لآل الزبير ، وأدرك أن عبد الله بن الزبير لا يمكن أن يسكت على تصاعد نفوذ المختار في العراق ، وبهذا يكون عبد الملك قد جنب نفسه الصدام مع المختار ووفر قواته لمنازلة ابن الزبير فيما بعد ، وقد صدق وتحقق ما توقعه عبد الملك ، فقد أرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً إلى الكوفة للقضاء على المختار ، وقد نجح مصعب في القضاء عليه سنة ٦٧هـ بعد معارك شديدة (٢٤٨) .

وهكذا انتهت حركة واحد من أكبر المغامرين الذين عرفهم العصر الأموي ، وبدا كما لو أن العراق قد عاد تحت سيطرة عبد الله بن الزبير ، ولكن ذلك لن يستمر طويلاً ، فسوف يسترده منه عبد الملك بن مروان سنة ٧٢هـ .

ثورة زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢١هـ :

مضى ما يقرب من نصف قرن ـ بعد هزيمة المختار الثقفي سنة ٦٧هـ ـ دون أن يقوم الشيعة بثورات على الدولة الأموية ، ولعل السبب في ذلك كثرة الهزائم التي منوا بها ، وافتقارهم إلى زعامة قوية يلتفون حولها ، ولكن رغم ذلك فإن جمرة الثورة على الحكم الأموي لم تخب في نفوسهم ، فما أن وجدوا الفرصة حتى أعلنوا عن نواياهم ، وجاءتهم هذه الفرصة في شخص رجل من كبار رجال آل البيت ـ وهو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٢٤٩) ـ الذي أشيع عنه أنه يتطلع إلى الخلافة في عهد هشام بن عبد الملك الذي انزعج من هذا ، وخشي

زيـدا لفضله وعلمـه ونسبه ومكانتـه بـين الناس ، فاستدعاه وقـال لـه : « يا زيد ، لقد بلغني أنك تذكر الخلافة وتتمناها ولست هناك وأنت ابن أمة » ، فغضب زيد ورد على هشام رداً غليظاً وقال له ـ في كلام كثير ـ : « لا يضيرني أن أكون ابن أمة وجـدي رسول الله » ، فاستاء منه هشام وقال له : « أخرج ، قال زيد أخرج ولا تراني إلا حيث تكره » ، وخرج لتوه إلى الكوفة التي كانت دائما مستعدة للثورة على بني أمية ، فالتف حوله الشيعة ، وزينوا له الخروج والثورة ، وقالوا له : « إنا لنرجو أن تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنوا أمية » ، ولكن زيداً أبدى شكوكه فيهم وتخوفه منهم وقال لهم : « إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلكم بأبي وجدي » ، خصوصاً وأن أبناء عمومته خوفوه منهم وقال له أحدهم : « يابن عم ، إن هؤلاء يغرونك من نفسك ، أليس قـد خذلوا من كان أعـز عليهم منك ، جدك علي بن أبي طالب حتى قتل ! والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رادءه من عنقه ، ونهبوا فسطاطه وجرحوه ، أوليسوا قـد أخرجوا جـدك الحسين ، وحلفوا له بأوكد الأيمان ثم خذلوه وأسلموه ، ثم لم يرضوا بذلك حتى قتلوه » [٢٥٠] .

رغم هذه التحذيرات ، ورغم علم زيد نفسه بأهل الكوفة وتقلباتهم ، إلا أنه استجاب لهم للأسف الشديد وأعلن الثورة ، ولكن هشاماً ورجاله كانـوا لـه بالمرصاد ، فتصدى لـه يوسف بن عمر الثقفـي ـ والي العراق ـ وقضى عليه ، والعجيب أن أهل الكوفة انفضوا عنه ولم يبق معه سوى مائتي رجل من خمسة عشر ألفا كانوا قد بايعوه ، لقي زيد مصرعه ، وباء أهل الكوفة بالخزي والعار ، وفشلت آخر ثورة شيعية في العصر الأموي .

الخوارج وثوراتهم على الدولة الأموية

لا يتسع المقام أمامنا هنا للحديث بالتفصيل عن الخوارج ومبادئهم وآرائهم وفرقهم وصراعهم الطويل مع الدولة الأموية [٢٥١] ، ولكن يكفي أن نعرف أن الخوارج هم فريق من أنصار علي بن أبي طالب ﷺ انشقوا عليه بعد قبوله التحكيم في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، واتهموه بالكفر لأنه حكم الرجال في كتاب الله ، وأصبحت لهم نظرية خاصة في الخلافة ، وهي أنها حق لكل مسلم تتوفر فيه شروطها ، وليس من الضروري أن يكون قرشياً .

وقد طبقوا نظريتهم في الخلافة على الخلفاء الراشدين ، فاعترفوا بخلافة أبي بكر وعمر ﷺ ، واعترفوا بخلافة عثمان بن عفان في سنيه الأولى ، ثم كفروه بعد ذلك ، أما علي بن أبي طالب فقد اعترفوا بخلافته قبل قبوله التحكيم ، ثم كفروه بعد ذلك ، وليتهم وقفوا عند حد المناظرات الكلامية والحجج البرهانية في خلافاتهم مع خصومهم ، ولكنهم لجأوا إلى العنف والقوة ، وحكموا السيف من أول لحظة ، الأمر الذي جعل علي بن أبي طالب يحاربهم - مضطر - ويقضي على كثيرين منهم في موقعة النهروان الشهيرة [٢٥٢] .

وإذا كان هذا رأي الخوارج في إمامهم علي بن أبي طالب ، فمن اليسير علينا أن نعرف آراءهم في الآخرين ، فقد حكموا بكفر أصحاب الجمل ، وبصفة خاصة عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم جميعاً ، أما معاوية بن أبي سفيان وسائر بني أمية فهم عندهم كفرة وظلمة وفسقة ، وقد ناصبوا دولتهم العداء منذ قيامها واعتبروا إزالتها والقضاء عليها واجبا مقدسا يقع عليهم وحدهم .

والحق أن الخوارج فرقة ـ تشعب الخوارج على مدى السنين إلى فرق عديدة وصل عددها إلى حوالي أربعين فرقة ، من أشهرها : الأزارقة ، والنجدات ، والأباضية ، والصفرية ـ من الفرق التي أقلقت الأمة الإسلامية بصفة عامة ، والدولة الأموية بصفة خاصة ، فقد هبّوا بثوراتهم في وجهها منذ قيامها ، وكانت أول ثوراتهم في الكوفة في ولاية المغيرة بن شعبة ، الذي كان حريصاً على تجنب العنف ، غير أنهم بتطرفهم أجبروه على اللجوء إلى القوة ، وكانت أول ثورة نشبت في الكوفة تلك التي قادها زعيم منهم يدعى عبد الله بن أبي الحوساء ـ بالقرب من الكوفة سنة ٤١هـ ، ولكن المغيرة بن شعبة تمكن من القضاء على الثورة ، ثم تلتها ثورة أخرى بقيادة حوثرة بن دراع الأسدي في العام نفسه ، فتم القضاء عليها أيضا ، ثم خرج خارجي آخر على الدولة الأموية هو فروة بن نوفل الأشجعي ، فقضي على ثورته .

وهكذا لم تهادن الدولة هذه الفرقة المتطرفة ، وأخذتها بالشدة ، وأثبت المغيرة بن شعبة أن الخوارج كانوا مخطئين عندما ظنوا لينه وتسامحه معهم ضعفاً .

ثم ازداد الضغط على الخوارج في العراق منذ ولى معاوية زياد بن أبي سفيان على البصرة سنة ٤٥هـ ، فزياد مشهور بالحزم والقوة والحرص الشديد على النظام ، فأخذ هو والمغيرة بن شعبة يتعقبان الخوارج ، ويضربان على أيديهم بيد من حديد ، وفي سنة ٥١هـ توفي المغيرة ، فضم معاوية الكوفة لزياد ، الذي أصبح سيد المشرق الإسلامي كله ، فاستمر على سياسته الحازمة تجاه الخوارج ، فلم تقم لهم قائمة طيلة ولايته [٢٥٣] .

ولما توفي سنة ٥٣هـ حمل ابنه عبيد الله لواء مقاومة الخوارج ، فاشتد في تعقبهم ومقاومتهم أكثر مما كان يصنع أبوه [٢٥٤] ، ولما شدد قبضته عليهم في العراق ، اضطر كثيرون منهم إلى مغادرتها ، فانحاز قسم منهم إلى عبد الله بن الزبير في مكة ، ولكنهم سرعان ما انشقوا عليه لما تبين لهم أنه لا يوافقهم على آرائهم المتطرفة ، وبصفة خاصة في تكفير عثمان بن عفان ﷺ [٢٥٥] .

وعادوا من مكة منقسمين على أنفسهم ، فخرج نجدة بن عامر الحنفي إلى اليمامة في مشرق الجزيرة العربية مكونة فرقة الخوارج النجدات ، ثم أقام له دولة هناك ، غير أنها لم تعمر طويلاً ، فقد قضى عليها عبد الملك بن مروان سنة ٧٣هـ [٢٥٦] .

أما نافع بن الأزرق فقد خرج على رأس جماعته الذين عرفوا بالخوارج الأزارقة إلى البصرة ، وعند عودتهم كان يزيد بن معاوية قد توفي ، فاضطرب الأمن اضطرابا شديداً ، فاستغل الخوارج هذا الاضطراب فأشاعوا الذعر والخوف في قلوب الناس ، الذين عجزوا عن دفع خطرهم عن البصرة ولم يجدوا من يفزعون إليه لينقذهم من هذا الخطر سوى القائد الكبير المهلب بن أبي صفرة .

كان المهلب عندما وقع عليه اختيار أهل البصرة ليدفع عنهم خطر الخوارج قادماً من مكة ، من عند عبد الله بن الزبير ، الذي كان قد ولاه على خراسان ، فلما عرض عليه أهل البصرة القيام بتلك المهمة ، اعتذر لهم بولايته على خراسان ، ولكنهم ألحوا عليه ، وتعهدوا له بأخذ الموافقة على ذلك من عبد الله بن الزبير ، وبالفعل كتبوا له فوافق على أن يتصدى المهلب للخوارج ، وقد نهض الرجل بهذه المهمة وقام بها خير قيام ، فلم

يشتد أحد في مقاومة الخوارج وإبعاد خطرهم عن العراق ، وكسر شوكتهم كما فعل المهلب ، الذي أصبح خبيراً في مقاومتهم ، والذي استمر على ذلك حتى بعد زوال دولة عبد الله بن الزبير سنة ٧٣هـ ، فقد انضم إلى عبد الملك بن مروان الذي عرف له قدره ودوره في مقاومة الخوارج ، فأبقاه ليستمر في مهمته ، ولقد برهن المهلب على إخلاصه في حرب الخوارج مهما كانت السلطة التي تصدر له الأوامر ، ولقد اشتد ساعده في مقاومة الخوارج أكثر منذ تولى الحجاج ولاية العراق سنة ٧٥هـ ، الذي جد في تعضيد المهلب فتمكّن بفضل ذلك من القضاء على الخوارج الأزراقة بقيادة قطري بن الفجاءة سنة ٧٧هـ [٢٥٧].

وباختصار يمكن القول أن المهلب بن أبي صفرة كان صاحب الفضل الأكبر في القضاء على الخوارج في عهد عبد الملك بن مروان .

ثورات الخوارج في آخر العصر الأموي :

كان للضربات القوية والهزائم المتلاحقة التي لقيها الخوارج على يدي المهلب بن أبي صفرة أثر كبير في إضعافهم ، فاستكانوا فترة طويلة ـ حوالي ربع قرن ـ ، فلم نسمع لهم حسا طوال عهدي الوليد وسليمان إبني عبد الملك ، ثم بدأوا يتحركون سنة ١٠٠هـ في خلافة عمر بن عبد العزيز ، بزعامة رجل اسمه بسطام اليشكري ، ولكن عمر لم يقاتلهم ، بل دخل معهم في حوار كاد أن يصل معهم إلى حل ، وإلى إقناعهم بإلقاء السلاح ، لولا وفاته المبكرة سنة ١٠١هـ ، وفي عهد خلفه يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ) استأنفوا نشاطهم العسكري ضد الدولة الأموية في العراق ، فكلف يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة بالقضاء عليهم ، وقد تمكن من ذلك .

وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) ظهرت حركات صغيرة للخوارج مثل حركة بهلول بن بشر ، وحركة الصحاري بن شبيب سنة ١١٩هـ ، وقد استطاع خالد بن عبد الله القسري والي العراق القضاء على الحركتين معا وقتل زعيميهما .

ثم شهد عهد مروان بن محمد (١٢٧ - ١٢٩هـ) آخر الخلفاء الأمويين آخر وأخطر حركتين للخوارج في العصر الأموي ، وهما ثورة الضحاك بن قيس الشيباني ، وثورة أبي حمزة الخارجي ، وقد انتهز هذان الثائران الفوضى والانقسام الذي حدث بين أبناء البيت الأموي - كما ذكرنا سابقاً - وقاما بثورتيهما ، الضحاك في العراق ، وأبي حمزة في الجزيرة العربية ، ولكن مروان بن محمد رغم مشاغله العديدة تصدى لهاتين الثورتين بكل حزم وقضى عليهما قضاءً مبرماً ، ولكن بعد أن أنهكوا قوته وكبدوه خسائر فادحة ، فلم يستطع الصمود أمام زحف العباسيين الذين تمكنوا من القضاء عليه وعلى الدولة الأموية برمتها .

وهكذا يمكن القول أن ثورات الخوارج العنيفة التي هبت في وجه الدولة الأموية منذ قيامها وحتى سقوطها ، كانت من أهم أسباب زوال هذه الدولة ، ولنا أن نسأل في نهاية حديثنا عنهم فنقول : أية فائدة عادت على الأمة الإسلامية من هذه الثورات التي أشعلها الخوارج في وجه الدولة الأموية ، والحق أنه لا فائدة ، بل خسائر في الأموال والرجال وتبديد لطاقة الأمة الإسلامية في الحروب ، والأخطر من ذلك كله ، ذلك الفكر المتطرف الذي خلفه الخوارج ، والذي لا يزال يضلل عقول بعض شباب المسلمين ، ويدفعهم إلى الثورة والتمرد على المجتمعات الإسلامية .

عبد الله بن الزبير والدولة الأموية

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق (٢٥٨) ، ولد في العام الأول من الهجرة ، وكان أول مولود يولد للمسلمين في المدينة بعد الهجرة ، وكان فرحهم به عظيماً ، نشأ عبد الله بن الزبير نشأة صالحة في تلك البيئة الطيبة الطاهرة ، فأبوه من كبار الصحابة ، وأمه أسماء ذات النطاقين من الصحابيات الجليلات ، وجده أبو بكر الصديق ، وخالته عائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنهم جميعاً ، يقول عنه الذهبي : « عداده في صغار الصحابة وإن كان كبيراً في العلم والشرف والجهاد والعبادة » ، وكان ذكي الفؤاد شجاعاً جريئاً معتداً بنفسه ذا طموح كبير ، شارك مبكراً في الفتوحات ، فقد روي أنه حضر معركة اليرموك وهو صغير ، كما شارك في فتح إفريقيا في عهد عثمان بن عفان ، وقد شارك في الأحداث التي حدثت في أواخر عهد عثمان ، وكان من المدافعين عنه عندما حوصر في بيته ، كما حضر موقعة الجمل مع أبيه وخالته عائشة .

ولما بويع معاوية عام الجماعة سنة ٤١هـ عمل على تحسين علاقته بكبار الصحابة وأبنائهم ، فقرب عبد الله بن الزبير ، الذي أخذ يتردد على معاوية كثيراً في دمشق ، ثم شارك في الفتوحات في عهده ، فقد اشترك في غزو أفريقيا سنة ٤٥هـ ، كما شارك في حصار القسطنطينية سنة ٤٩هـ مع الجيش الذي قاده يزيد بن معاوية ، وعلى وجه الاجمال كانت علاقة ابن الزبير بمعاوية حسنة وودية .

موقف ابن الزبير من ولاية العهد ليزيد :

ظلت علاقة ابن الزبير بمعاوية طيبة إلى أن بدأ معاوية الشروع في أخذ البيعة بالخلافة لابنه يزيد من بعده ، وهنا تتحدث المصادر عن موقف معارض من ابن الزبير لهذه البيعة ، وأن معاوية أجبره على البيعة ليزيد (٢٥٩) ، فلما توفي معاوية سنة ٦٠هـ كان أول ما اهتم به هو أن يحصل على بيعة مجددة من ابن الزبير والحسين بن علي ، وبالفعل أرسل إلى والي المدينة يأمره بأخذ البيعة منهما ، ولكنهما لم يعطياه البيعة واستطاعا الخروج إلى مكة معلنين أنهما لن يبايعا يزيد ، أما الحسين فقد كتب له أهل الكوفة وطلبوا منه الخروج إليهم ليبايعوه بالخلافة ، وكان من أمره ما ذكرناه آنفا .

أما ابن الزبير فقد بقي في مكة وسمى نفسه العائذ بالبيت ، وظل رافضا البيعة ليزيد ، فأرسل له يزيد جيشاً يغزوه في مكة في مطلع سنة ٦٤هـ بعد هزيمة أهل المدينة في موقعة الحرة سنة ٦٣هـ ، وقد حاصر الجيش الأموي مكة ، ودارت مناوشات بينهم وبين قوات ابن الزبير ، وأثناء ذلك جاءت الأخبار إلى ابن الزبير بموت يزيد بن معاوية في شهر ربيع الأول سنة ٦٤هـ ، فلما علم بذلك صاح في أهل الشام : « علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم » ، فلما سرى خبر موت يزيد في جيش أهل الشام انكسرت شوكتهم .

وهنا سنحت فرصة لعبد الله بن الزبير ، تعتبر من الفرص النادرة التي تعرض للإنسان في حياته ، فإما اقتنصها ، وإلا ضاعت للأبد ، فقد بعث إليه الحصين بن نمير قائد جيش الشام أن يلتقي به للتفاوض ، فلما التقيا قال له الحصين : « إن يك هذا الرجل قد هلك ، فأنت أحق الناس

بهذا الأمر هلم فلنبايعك ، ثم أخرج معي إلى الشام ، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم ، فـوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس ، وتهدر الدماء التي كانت بيننا وبينك » .

ولكن ابن الزبير رفض هذا العرض ، وأضاع على نفسه تلك الفرصة وبقي في مكة ، وعاد جيش الشام إلى دمشق .

هذا ورغم بقاء ابن الزبير في مكة إلا أن البيعة بالخلافة أخذت تأتيه من الأمصار الإسلامية عندما علمت أنه أعلن نفسه خليفة ، فبايعته العراق ومصر ، حتى بعض ولايات الشام ـ الحصن التقليدي لبني أمية ـ بايعته ، مثل حمص وفلسطين ، وبدا كما لو أن دولته قد استقرت واتسعت ، وأن الدولة الأموية على وشك السقوط ، غير أن الأمور ستتطور تطورات خطيرة ليست في مصلحة ابن الزبير ، فإن بقاءه في مكة وعدم خروجه إلى العراق أو الشام ليدعم مركزه ، ويشد من أزر أنصاره ، أعطى فرصة لبني أمية لكي يحسنوا موقفهم ويوحدوا كلمتهم لاستعادة دولتهم ، وقد نجحوا في ذلك حيث بايعوا لمروان بن الحكم بالخلافة في مؤتمر الجابية في ذي القعدة ٦٤هـ كما مر ذكره ، واستطاع مروان أن يهزم أنصار ابن الزبير في الشام في موقعة مرج راهط ، التي سبقت الإشارة إليها ، ويسيطر الأمويون على الشام من جديد ، ثم اتبع مروان بالمسير إلى مصر واستردها بسهولة سنة ٦٥هـ من عامل ابن الزبير عليها .

عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان :

أضاع ابن الزبير على نفسه الفرصة بعد موت يزيد ، واكتفى بالبيعة التي كانت تأتيه من الأمصار ، ولم يبذل جهداً كافياً لتدعيم سلطانه في الولايات التي بايعته ، وهنا ستبرز شخصية عبد الملك بن مروان ، الذي كان يتفوق على ابن الزبير في الدهاء والبراعة السياسية ، وسيستخدم معه كل سلاح ممكن حتى يقضي عليه في النهاية ، ذلك أن مروان بن الحكم بعد أن استرد مصر عاد إلى الشام كي يستأنف القتال مع ابن الزبير ، لكنه توفي سريعاً في رمضان سنة ٦٥هـ ، وترك تلك المهمة لابنه عبد الملك الذي أدرك بذكائه وفطنته أن هناك قوى أخرى بدأت تظهر في العراق وتحاول إقامة دول لحسابها ، منتهزة جو الفوضى والاضطراب ، مثل المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وأن ابن الزبير لن يسكت على ذلك - حيث كانت العراق قد بايعت له - بل سيحاول القضاء على المختار ، فترك عبد الملك هؤلاء - وكلهم خصومه - يتقاتلون ويصفي بعضهم بعضاً ، وهو الكاسب في النهاية ، لأن الصراع بين ابن الزبير والمختار سوف تكون نتيجته القضاء على أحدهما ، ومن يبقى بعد ذلك تكون قوته قد ضعفت ويسهل على عبد الملك القضاء عليه ، وقد حدث ما توقعه عبد الملك ، فقد أرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً إلى الكوفة للقضاء على المختار الثقفي ، وقد نجح مصعب في ذلك وقتل المختار سنة ٦٧هـ .

وهنا بدأ عبد الملك استعداداته للقضاء على مصعب في العراق ، وقاد جيشه بنفسه ، وتمكن من هزيمة مصعب ، الذي لقي مصرعه سنة ٧٢هـ (٢٦٠) ، واسترد العراق من آل الزبير .

نهاية ابن الزبير:

كان مقتل مصعب بن الزبير وضياع العراق ضربة قاضية لعبد الله ابن الزبير ، وإيذانا بانتهاء دولته ، التي لم يبق له منها إلا إقليم الحجاز ، وهذا وحده لم يكن قادراً على الصمود أمام الأمويين الذين استردوا دولتهم وأصبحت لهم جيوش جرارة ، ولذلك لم يضيع عبد الملك بن مروان وقتاً بعد انتصاره على مصعب في العراق ، فقد أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي على رأس جيش إلى الحجاز للقضاء على عبد الله بن الزبير ، وقد تمكن الحجاج من ذلك ، حيث قتل عبد الله بن الزبير في سنة ٧٣هـ وانتهت دولته التي استمرت حوالي تسع سنين .

* * *

كلمة ختامية عن الدولة الأموية

حكم الأمويون العالم الإسلامي إحدى وتسعين سنة (٤١ - ١٣٢هـ) ، وتولى الحكم منهم خلال هذه الفترة أربعة عشر خليفة ، أولهم معاوية بن أبي سفيان ، وآخرهم مروان بن محمد ، قدمنا فصلاً للتعريف بهم وبسياستهم وأسلوبهم في إدارة الدولة وأبرز أعمالهم ، واتضح من الدراسة أن معظم هؤلاء الخلفاء لم يكونوا على تلك الصورة القاتمة التي حاولت أن تصورهم بها مصادر التاريخ القديمة ذات الاتجاهات الحزبية المعادية لهم ، والدراسات الحديثة التي استقى أصحابها معلوماتهم من تلك المصادر ، وأثبتت الدراسة التي استقينا مادتها العلمية من المصادر المحايدة أن معظم خلفاء بني أمية كانوا رجالاً على مستوى المسئولية كرسوا كل وقتهم وجهدهم لإدارة الدولة ، والسهر على رعاية مصالح المسلمين ، وليس معنى هذا أن أعمالهم كانت كلها صائبة أو بريئة من الأخطاء ، بل كانت لها أخطاء وتجاوزات أشرنا إليها في حينها ، وهذا أمر لا يسلم منه من يتصدى لإدارة دولة كبيرة كالدولة الأموية .

أما أعظم أمجاد الأمويين الباقية على الزمن ، فهي جهودهم في ميدان الفتوحات الإسلامية ، فرغم المصاعب الكثيرة التي كانت تعترض طريقهم ، والقوى والأحزاب والفرق العديدة المعادية لهم والتي كانت تشدهم إلى الوراء ، رغم كل ذلك فقد قاموا بفتوحات رائعة ، ورفعوا راية الإسلام ، ومدوا حدوده من الصين في الشرق إلى الأندلس وجنوب فرنسا في الغرب ، ومن بحر قزوين في الشمال حتى المحيط الهندي في الجنوب .

ومما يجدر ذكره أن هذا الفتح العظيم لم يكن فتحاً عسكرياً لبسط النفوذ السياسي واستغلال خيرات الشعوب ، كما يدعي أعداء الإسلام ، وإنما كان فتحاً دينياً وحضارياً ، فقد عمل الأمويون بكل طاقاتهم على نشر الإسلام في الك الرقعة الهائلة من الأرض التي فتحوها ، وطبقوا منهجاً سياسياً في معاملة أبناء البلاد المفتوحة هيأهم لقبول الإسلام دينا ، حيث عاملوهم معاملة حسنة في جملتها ، واحترموا عهودهم ومواثيقهم معهم ، وأشركوهم في إدارة بلادهم ، فأقبلوا على اعتناق الإسلام عن اقتناع ورضا ، وبذلك تكون في العصر الأموي عالم إسلامي واحد أخذ يشق طريقه تدريجياً نحو التشابه والتماثل في العادات والتقاليد والأخلاق ومعاملات الحياة ، وأخذت أممه وشعوبه تنسلخ من ماضيها كله ، وتنصهر في بوتقة الإسلام ، الذي حقق لها العزة والكرامة والحرية والمساواة ، ومكونة الأمة الإسلامية الواحدة .

ومن المجالات التي أظهر فيها الأمويون مقدرة فائقة مجال الإدارة ، إدارة الدولة وتسيير أمورها ، وهذا أمر عظيم ، فلا شك أن الإدارة الحسنة هي أهم وسائل تقدم الأمم ورقيها ، ولقد كان معاوية بن أبي سفيان ، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك وأبناؤه الوليد وسليمان وهشام ، وابن أخيه عمر بن عبد العزيز ، وحتى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، كان هؤلاء الخلفاء رجال دولة من الطراز الأول ، لم يركنوا إلى الدعة والراحة ، وإنما كرسوا كل وقتهم لإدارة دولتهم المترامية الأطراف ، ولم يكفوا عن تطوير الأجهزة الإدارية والدواوين التي بدأت بذورها منذ عهد الرسول ، واستحداث ما دعت الضرورة وظروف تطور المجتمع والدولة إلى انشائه من تلك الأجهزة والدواوين ، فقد أنشأ معاوية بن أبي سفيان ديوان البريد ، وكلمة ديوان كلمة فارسية

تعني السجلات التي تدون فيها الأموال والأسماء ، وكانت الدواوين في تلك العصور تؤدي عمل الوزارات في عصرنا الحاضر .

وديوان البريد الذي أنشأه معاوية كان يؤدي عملين هامين ، الأول : توصيل ونقل الرسائل والمراسلات بين الخليفة وولاته على الأقاليم ، والثاني : أن رجال البريد كانوا عيون الخليفة التي تراقب له الولاة والعمال ، وترفع له تقارير منتظمة عنهم حتى يكون مطلعاً باستمرار على سير العمل في الدولة ، كما أنشأ معاوية ديوانا آخر على جانب عظيم من الأهمية ، وهو ديوان الخاتم ، وهذا الديوان يشبه إدارة الأرشيف في الدول المعاصرة ، فكانت كل رسالة أو وثيقة أو معاهدة تكتب ويوقع عليها الخليفة تحفظ منها نسخة في هذا الديوان بعد أن تختم بالشمع وتحزم بخيط بحيث لا يمكن تزويرها أو العبث بها .

ويطول الحديث بنا لو حاولنا تناول الدواوين العديدة التي أحدثها الأمويون لإدارة الدولة ، فهذه مجرد أمثلة ، فقد كان هناك دواوين كثيرة مثل ديوان الجند ، الذي يقوم بعمل وزارة الدفاع ، وديوان الرسائل الذي كان يقوم بعمل عدة وزارات ، مثل وزارة الخارجية ، وديوان الخراج الذي كان يقوم بعمل وزارة الخزانة .

ولقد طور عبد الملك بن مروان هذه الدواوين ، وقام بعمل عظيم وهو تعريب دواوين الخراج في الدولة الإسلامية ، فقد كانت تلك الدواوين منذ بداية الدولة الإسلامية وحتى عهد عبد الملك بن مروان تكتب في فارس والعراق باللغة الفارسية ، وفي الشام ومصر تكتب باللغة اليونانية ، وكان ذلك في البداية ضرورة من الضرورات التي واجهتها الدولة الإسلامية ، فلم يكن لديها عدد كاف من العرب

المسلمين لإدارة دواوين الخراج ، لأن العمل فيها صعب ومعقد ويحتاج إلى خبرة كبيرة ، فترك المسلمون هذه الدواوين تحت إدارة غير العرب ، وتستخدم فيها لغات غير عربية ، فلما جاء عبد الملك بن مروان رأى أن هذا الوضع لا بـد أن ينتهي ، ولا بد أن تتوحد لغة الإدارة في جميع دواوين الدولة ، فأمر بنقل دواوين الخراج في جميع أنحاء الدولة الإسلامية إلى اللغة العربية ، ولم يقم عبد الملك بهذه الخطوة الجبارة إلا بعد أن استعد لها استعداداً كافياً بأن جهز عدداً من العرب المسلمين الذين تعلموا اللغتين الفارسية واليونانية وتدربوا على شئون المال والاقتصاد ، ولذلك لما بدأت ترجمة هذه الدواوين لم يحدث أي نوع من الارتباك أو تعطيل العمل ، ولم يقتصر عمل عبد الملك هذا على توحيد لغة الإدارة في الدولة الإسلامية ، بل كان له أثر آخر أعظم ، ذلك أن الموظفين غير العرب الذين كانوا يعملون في تلك الدواوين ، وكانت أعدادهم كبيرة ، لكي يحافظوا على وظائفهم فقد بدأوا يتعلمون اللغة العربية ، وتعلمهم اللغة العربية جعلهم يتعرفون على الإسلام والاقتراب من مبادئه العظيمة وانتهى الأمر بأغلبهم إلى اعتناقه .

وكما عرب عبد الملك بن مروان دواوين الخراج فقد قام بعمل آخر لا يقل أهمية عن تعريب الدواوين ، وهو تعريب العملة ، فقد كانت الدولة الإسلامية حتى عهده تعتمد على النقد الأجنبي وبصفة خاصة الدينار البيزنطي ، فألغى عبد الملك التعامل بهذا الدينار ، وأمر بسك دينار إسلامي ، وبنيت دور لسك النقود في الشام والعراق ، وبهذا صبغ عبد الملك بن مروان الدولة الإسلامية بصبغة عربية إسلامية في جميع المجالات .

هذا ولم يكن خلفاء بني أمية رجال حرب وفتوحات وسياسة وإدارة فقط ، وإنما كانوا رجال بناء وعمران ، وشهد عصرهم العديد من المنشآت المعمارية الدينية والمدنية . والعمارة تمثل ناحية هامة من نواحي الحضارة الإسلامية والعمارة لها جوانب عديدة منها بناء البيوت والقصور والمدارس والجامعات والمستشفيات ، ودور العبادة ، ومنها بناء الجسور والقناطر وشق الترع ... الخ .

وقد اهتم الأمويون اهتماماً كثيراً بكل هذه النواحي . فقد رأيت فيما سبق كيف اتسعت حدود الدولة الأموية إلى الحد الذي جعل من الضروري ربط أجزاء هذه الدولة الواسعة بشبكة من الطرق المعبدة حتى يسهل الاتصال بين أطرافها وبين عاصمتها دمشق . وتكون حركة الجيوش كذلك سهلة ، وهناك ناحية هامة جعلت الأمويين يهتمون بالطرق وهي فريضة الحج إلى بيت الله الحرام فقد كان عليهم أن يعبدوا جميع الطرق التي تربط مكة المكرمة والمدينة المنورة ببقية العالم الإسلامي حتى يسهلوا للحجاج الوصول إلى تلك الأماكن المقدسة بدون مشقة ، كما كانت تنتشر على هذه الطرق الأسواق والاستراحات التي تزود المسافرين بحاجياتهم من طعام وشراب الخ .

كذلك اعتنى الأمويون بمشروعات الري للنهوض بالزراعة ، لأن دولتهم ضمت العديد من الأقطار الزراعية التي تجرى فيها أنهار كبيرة ، مثل الشام ومصر والعراق وفارس ، فكان لابد لكي تنهض الزراعة من تنظيم عملية الري وما يتطلبه ذلك من شق الترع وإقامة الجسور ... الخ .

كذلك اعتنى الأمويون ببناء القصور الفخمة ، فقد كان معظمهم ميالاً إلى الاستمتاع بمباهج الحياة بعد أن توفر لديهم المال الكثير ، فاتجهوا إلى بناء القصور والتأنق فيها وتزينها بالزخارف والصور النباتية

والهندسية ، وقد اكتشف في السنوات الأخيرة العديد من القصور التي ترجع إلى العصر الأموي والتي وجدت مزينة بالصور حتى في الحمامات . ومعظم القصور الأموية التي اكتشفها علماء الآثار منذ القرن الماضي وجدت في الصحراء – صحراء الشام بصفة خاصة – وذلك لأن الأمويين كانوا يحبون حياة البادية للاستمتاع فيها بالهدوء والهواء الطلق بعيداً عن وخومة المدن .

وكما اهتم الأمويون بالمباني والمنشآت المدنية كالطرق ومشروعات الري والقصور والتأنق فيها ، فقد كان اهتمامهم أعظم بالمنشآت الدينية ، وفي مقدمتها المساجد ، فالمسجد أهم مؤسسة في الإسلام فقد كان أول شيء فعله رسول الله ﷺ في المدينة المنورة عندما هاجر إليها أن أسس مسجده العظيم ، الذي كان مكاناً للعبادة وتبليغ الوحي وإدارة الدولة الإسلامية ، وفيه ربى الرسول وعلم أصحابه شرائع الإسلام وفنون القيادة في ميادين الحرب والسياسة والإدارة ، وقد حذا المسلمون حذو الرسول ﷺ في كل مكان حلوا فيه ، وفي كل مدينة جديدة أسسوها ، فكان أول شيء يهتمون ببنائه هوالمسجد ، وفعلوا ذلك في البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ... الخ .

وقد احتل بناء المساجد والعناية بها مكاناً بارزاً في عصر بني أمية على اتساع العالم الإسلامي ، فكانوا يزيدون في مساحة المساجد التي كانت قائمة في عهدهم لكثرة المسلمين ، كجامع صنعاء وجامع عمرو ابن العاص اللذين أعيد بناؤهما في عهد الوليد بن عبد الملك .

وكان مسجد الرسول ﷺ من أول المساجد التي حظيت باهتمام الأمويين ، فقد أمر الوليد بن عبد الملك بتوسعته وتجديده ، وعهد بتلك المهمة إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز ، وأمده بكثير من الأموال

وكميات كبيرة من مواد البناء والتجميل مثل الفسيفساء ، حتى جاء البناء على شكل رائع . وأعظم المساجد التي أنشأها الأمويون المسجد الأموي في دمشق ، والذي أنشأه أيضاً هو الخليفة الوليد بن عبد الملك ، الذي كان مولعاً بالبناء والتعمير ، لدرجة أن المؤرخين يذكرون أن الناس كانوا في عهد الوليد لا حديث لهم إلا عن البناء والعمارة أسوة بخليفتهم ، على قاعدة أن الناس دائما على دين ملوكهم .

وقد اجتهد الوليد في بناء ذلك المسجد لتتمثل فيه عظمة الإسلام والدولة الإسلامية ، فجعله آية من آيات العمارة الإسلامية ، وانفق عليه أموالاً طائلة ، ولا زال هذا المسجد قائما حتى الآن شاهداً على عظمة بناته .

هذا وقد انتشرت المساجد في العصر الأموي في كل الأمصار الإسلامية بحيث يصعب حصرها ، ومنها على سبيل المثال مسجد القيروان الذي بناه عقبة بن نافع في عهد معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٠ – ٥٥هـ ، وجامع الزيتونه في تونس الذي بنى في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١١٤هـ . والمسجد الجامع بواسط ، ومسجد قصر الحير الشرقي والمسجد الجامع بحران ، والمسجد الجامع بالأسكندرية ، المعروف بجامع الألف عمود .

ومما يجب التنويه به أن العصر الأموي لم يكن فقط عصر فتوحات عظيمة وعصر بناء وعمران ، ولم يكن الأمويون رجال سياسة وإدارة من طراز عال فحسب ، بل إن عصرهم شهد بداية نمو الحركة العلمية في كل مجال من مجالات العلوم . وإن كان الأزدهار العلمي لم يتحقق في عهدهم وتحقق بعدهم في عصر بني العباس إلا أن البداية التي بدأت منذ ظهور الإسلام أخذت تنموا وتتقدم في عصرهم حسب ما كانت تسمح

به الظروف والإمكانات ، فقد أخذت العلوم الإسلامية الأصلية مثل التفسير والحديث والفقه واللغة العربية وآدابها ، أخذت هذه العلوم الإسلامية تتبلور وتصبح لهامدارس وأساتذة في كل المدن والأمصار الإسلامية ، وكان الأساتذة الذين أخذوا يعلمون هذه العلوم هم من الصحابة والتابعين .

ففي مكة أم القري ، التي شهدت أول نزول الوحي ترك الرسول ﷺ فيها بعد فتحها معاذ بن جبل الذي كان من أعلم الصحابة بالحلال والحرام وتركه الرسول في مكة ليعلم أهلها ويفقههم في الدين ، كذلك من أساتذة مكة في العصر الأموي عبد الله بن عباس سنة ٦٨هـ إبن عم الرسول ، الذي كان يجلس في البيت الحرام ويعلم الناس التفسير والحديث والفقه والأدب ، وإلى أبن عباس يرجع الفضل فيما كان لمدرسة مكة من شهرة علميه واسعة ، وأشهر من تخرج في هذه المدرسة من التابعين والذين كان له دور كبير في الحركة العلمية في العصر الأموي : مجاهد بن جبر سنة ١٠٣هـ ، وعطاء بن أبي رباح ت ١١٥ هـ وطاووس بن كيسان .

واستمرت هذه المدرسة العلمية العظيمة قائمة يتلقى العلم فيها جيل عن جيل وكان من أنجب تلامذتها الإمام الشافعي ت ٢٠٤هـ .

أما مدرسة المدينة المنورة فكانت أكثر علماً وأوفر شهرة من مكة لأن معظم الصحابة الكبار عاشوا فيها وعلموا جيلاً كبيراً من التابعين ، كان من أشهرهم في العصر الأموي سعيد بن المسيب ت ٩٥هـ وعروة ابن الزبير بن العوام ت ٩٤هـ - الذي كان من أعلم أهل المدينة وأكثرهم تقوى وورعاً ، وعن هذه الطبقة أخذ العلم طبقة أخرى كان من أشهرها محمد بن شهاب الزهري ت ١٣٤ هـ الذي حفظ فقه علماء المدينة

وحديثهم ، وكان من أسبق العلماء إلى تدوين العلم ، واتصل بكثير من خلفاء بني أمية ، مثل عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك ، وقال عنه عمر بن عبد العزيز « إنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه » ، وقد انجبت مدرسة المدينة إمام دار الهجرة مالك بن أنس ٩٣ - ١٧٩هـ الذي عاش حوالي نصف عمره في العصر الأموي .

هذا عن الحركة العلمية في العصر الأموي في المدينتين المقدستين : مكة والمدينة ، أما في العراق فقد نشأت مدرستان عظيمتان في كل من الكوفة والبصرة ، ففي الكوفة عاش كثيرون من كبار الصحابة الذين نزلوها بعد تأسيسها في عهد عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ . وكان من أشهر من عاش في الكوفة من الصحابة على بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما . وإذا كان علي رضي الله عنه قد شغل بالسياسة وأمور الدولة إلى حد كبير عن التفرغ للتعليم ، فإن ابن مسعود قد قام بهذا الدور ، ولذلك يعتبر من أكثر الصحابة أثراً علمياً في الكوفة . وقد أخذ عليه كثيرون من علماء الكوفة ، ولزمه تلاميذ منهم تعلموا العلم على يديه وتأدبوا بآدابه ، وكان يعلم الناس القرآن ويفسره لهم ويروي لهم الأحاديث التي سمعها من الرسول ﷺ ، والخلاصة أنه تكونت في الكوفة حركة علمية كبيرة اشتهر من علمائها شريح القاضي والشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ، وكل هؤلاء عاشوا في العصر الأموي ، ولم تزل مدرسة الكوفة تنمو وتنضج حتى توجت بالإمام الأعظم ابي حنيفة النعمان (٨٠-١٥٠هـ) .

أما البصرة فقد نشأت فيها كذلك مدرسة علمية كبيرة كان أساتذتها من كبار الصحابة ؛ مثل أبي موسى الأشعري وأنس بن مالك ،

خادم الرسول ﷺ ، ومن أشهرالعلماء الذين خرجتهم مدرسة البصرة في العصر الأموي الحسن البصري ومحمد بن سيرين ، وكلاهما من الموالي ، وكلاهما كانت له شخصية علمية ظاهرة في البصرة ، فالحسن البصري اشتهر بمتانة خلقه وصلاحه وعلمه وفصاحته ، وكان موضع حب واحترام أهل البصرة ، حتى أن المصادر تروى أنه عند وفاته سنة ١١٠هـ تبع أهل البصرة كلهم جنازته ، حتى لم يبق بالمسجد من يصلي العصر . وكان رغم انتقاده العلني لخلفاء بني أمية موضع احترامهم .

وأما محمد بن سيرين فقد تعلم على يدي زيد بن ثابت وأنس بن مالك وشريح وغيرهم ، وكان محدثاً ثقة ، وفقيها يفتى فيما يعرض عليه من القضايا والشئون ، واشتهر أيضاً بتفسير الأحلام وتوفى أيضاً سنة ١١٠هـ .

وفي الشام نشأت مدارس علمية منذ بداية الفتح الإسلامي لها في عهد عمر بن الخطاب ، فقد روى البخاري في كتاب التاريخ أن يزيد بن أبي سفيان كتب إلى عمر بن الخطاب أن أهل الشام قد احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ، فأرسل إليه معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء رضي الله عنهم جميعاً ، فكان هؤلاء الثلاثة أول مؤسسي الحركة العلمية الإسلامية في الشام ، فقد تفرقوا في أقاليمها ، فنزل أبو الدرداء في دمشق وعبادة حمص ومعاذ فلسطين ، وتخرج على أيدي هؤلاء الصحابة الكبار عدد كبير من التابعين منهم أبو أدريس الخولاني ، ثم مكحول الدمشقي ، وعمر بن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوه وكل هؤلاء من أعلام العلماء في العصر الأموي ، ثم خرّجت مدرسة الشام عبد الرحمن الأوزاعي الذي يعد من أقران الإمامين أبي حنيفة ومالك بن أنس ، وكان من الطبيعي أن تكون الشام مقراً لحركة

علمية واسعة وأن يقصدها العلماء من كل صقع لأنها أصبحت مركز الخلافة الأموية وفيها عاصمتها مدينة دمشق .

وفي مصر نشأت مدرسة علمية إسلامية عظيمة بعد الفتح الإسلامي ، وكان أساتذتها ومؤسسوها أيضاً من الصحابة الذين نزلوا مصر ، ومن أشهرهم عمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو الذي يعد من أكثر الناس حديثاً عن رسول الله ﷺ ، لأنه كان يدون ما كان يسمعه من الرسول ، وقد سكن مصر فلم يكن يغادرها إلا للغزو أو الحج أو العمرة ، ويعد بحق مؤسس المدرسة المصرية وأخذ عنه العلم كثيرون من أهلها .

وقد اشتهر من علماء مدرسة مصر بعد جيل الصحابة كثير من التابعين الذين عاشوا في العصر الأموي ، منهم يزيد بن أبي حبيب ، الذي قال عنه الكندي المؤرخ المصري : أنه أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام ومسائل الفقه ، وكان ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز إليهم الفتيا بمصر والآخران هما جعفر بن ربيعة ، وعبد الله بن أبي جعفر . واستمرت مدرسة مصر التي كان مقرها جامع عمرو بن العاص في الفسطاط تنمو وتزدهر حتى خرجت الكثير من العلماء كان من أشهرهم الليث بن سعيد فقيه مصر وإمامها ، والذي قال عنه الإمام الشافعي الليث أفقه من مالك بن أنس وقد توفي الليث سنة ١٧٥هـ .

ويطول بنا الكلام لو تحدثنا عن الحركة العلمية في بقية أقطار العالم الإسلامي في العصر الأموي ولكن هذه مجرد إشارات تنبه الأذهان إلى أن العصر الأموي كان عصر فتوحات عظيمة وإدارة وسياسة وعمران ، وكان أيضاً العصر الذي شهد بداية نمو الحركة العلمية الإسلامية التي كان قوامها القرآن وتفسيره ، والحديث وشرحه والفقه

وأصوله ، والتاريخ والسير ، والمغازي واللغة العربية وآدابها ... إلخ .

وهناك فضيلة أخرى يجب أن تذكر للأمويين وتحسب لهم في صحائف حسناتهم تلك هي حفاظهم على التراث العلمي الأجنبي الذي وجدوه في البلاد المفتوحه ، فقد عرفنا فيما سبق أن الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي امتدت إلى آفاق بعيدة ، شملت مساحات واسعة في قارات الدنيا القديمة الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وهذه المناطق التي حوتها الدولة الإسلامية ، كانت هي موطن الحضارة في العالم يومئذ ، وفيهامدارس علمية وفكرية تركز فيها كل ما انتجه العقل البشري من علوم على مدي آلاف السنين ، فعلم الهنود والفرس والإغريق على اختلاف أنواعه كان منتشراً في البلاد التي فتحها المسلمون في العصر الأموي ، ووضع المسلمون أيديهم على هذا الكنز العلمي الثمين الذي كان موزعاً على مدن زاهرة تعج بالنشاط العلمي مثل الأسكندرية وغزة وبيروت ودمشق وحران والرها وجنديسابور وغيرها ، وكانت العلوم التي تدرس في أغلب مدارس هذه المدن هي علوم الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والهندسة والطبيعة والكيمياء والجغرافيا ، وكان الأساس الذي تقوم عليه هذه العلوم هو الأساس الوثني ، فماذا صنع المسلمون في العصر الأموي بهذه المدارس . هل أغلقوها وعطلوا الدراسة فيها؟ لا لم يحدث شيء من ذلك على الإطلاق ، بل أبقوا هذه المدارس على ما كانت عليه وتركوا الأساتذة يعلمون والطلاب يتعلمون في جو من الحرية والتسامح لم يسبق له مثيل ، بل لم يتدخلوا مطلقاً في شؤون هذه المدارس وتركوا كل شيء للقائمين عليها ، فلما رأي العلماء والطلاب هذه الحرية وهذا التسامح مع العلم والعلماء الذي أبداه المسلمون نحوهم والذي هو في الواقع من وحي الدين الإسلامي نفسه الذي يحترم العلم والعلماء ويكرمهم ، بل

يحث الناس على العلم والتعليم ويعتبر التفكير فريضة من فرائضه ، فأول آية نزلت من القرآن الكريم كما هو معروف هي قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك ... إلى آخر الآيات » .

أقول فلما رأى علماء هذه المدارس وطلابها هذا التسامح الإسلامي أقبلوا على العلم والتعليم بصدور منشرحة وعقول مفتوحة وأخذت هذه المراكز العلمية تؤدي عملها تحت الحكم الإسلامي حتى جاء العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ) ، وكانت الدولة الإسلامية قد استقرت والعلوم الإسلامية الأصيلة والتي أشرنا إليها قبل قليل من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه ولغة عربية وآدابها قد تأصلت ووضعت قواعدها وأصبحت لها مدارس شهيرة في مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط الخ . عندئذ بدأ المسلمون يتجهون للعلوم الأجنبية والتي كانوا يسمونها العلوم الدخيلة وهي الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والطبيعة والكيمياء . .الخ . اتجهوا إلى هذه العلوم وبدأوا يترجمونها إلى اللغة العربية ، وكان الخلفاء العباسيون يشجعون حركة الترجمة ويجزلون العطاء للعلماء على عملهم ويحترمونهم وينزلونهم منزلة كبيرة ، فقد كان الخليفة المأمون يعطي العالم الذي يترجم كتاباً علمياً من لغة أجنبية إلى اللغة العربية وزن هذا الكتاب من الذهب الخالص ، لذلك أقبل العلماء على الترجمة في همة ونشاط حتى لم يكد يمضي قرن واحد على بداية حركة الترجمة حتى أصبح ذلك التراث العلمي العظيم الذي خلفته البشرية على مدى أجيال عديدة يُقرأ باللغة العربية ، التي كانت أكثر اللغات إنتشاراً في العالم لأنها لغة الإسلام والمسلمين . والمسلمون في ذلك الوقت كانوا أقوى وأغنى أمة على ظهر الأرض ، فهل يقرأ المسلمون تاريخهم العظيم هذا ويحاولون استعادة مجد آبائهم وعظمتهم ، والخلاصة أنه لولا سماحة

الخلفاء الأمويين وسعة أفقهم وحفاظهم على هذا التراث لضاع هذا التراث العظيم وخسرت البشرية خسارة كبرى لا تعوض .

* * *

الهوامش

١ ـ انظر المقريزي ـ النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ص ١١ .

٢ ـ انظر . تاريخ خليفة بن خياط ص ٩٧ ومنهاج السنة النبوية للإمام ابن تيمية جـ ٣ ص ١٧٥ـ١٧٦ .

٣ ـ انظر سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٢ .

٤ ـ المصدر السابق جـ ٤ ص ٦٩ ، ١٤٩ ، تاريخ خليفة بن خياط ص ٩٧ .

٥ ـ السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١١ .

٦ ـ نسب قريش للمصعب الزبيري ص ١٢٢ .

٧ ـ تاريخ خليفة بن خياط . ص ١٥٥ .

٨ ـ انظر ترجمة معاوية في طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٣٢ ونسب قريش ص ١٣٤ وأسد الغابة جـ٥ ص ٢٠٩ والإجابة لابن حجر جـ ٩ ص ٢٣١ .

٩ ـ البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ١١٧ وما بعدها .

١٠ ـ المصدر السابق جـ ٨ ص ١١٧ .

١١ ـ سير أعلام النبلاء ـ الذهبي جـ ٣ ص ١٢٤ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ١٢١ .

١٢ ـ تاريخ خليفة بن خياط ص ١٥٥ .

١٣ـ تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٠٣ وأسد الغابة لابن الأثير جـ ٥ ص ٢١١ .

١٤ ـ انظر صحيح البخاري جـ ٤ ص٢١٦ والعواصم من القواسم لأبي بكر ابن العربي ص ٢٠٠ .

١٥ ـ العواصم من القواصم ص ١٩٧ .

١٦ ـ الفخري في الآداب السلطانية ـ ص ١٠٤ - ١٠٦ وكثيرون هم المؤرخون الذين اثنواعلى معاوية ووصفوه بأطيب الصفات وجميل السجايا ، مثل المسعودي وهو شيعي كذلك، ومثل ابن خلدون وابن كثير الخ .

١٧ ـ جـ ٥ ص ٢١٠ وراجع ابن كثير ـ البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٣٥، فقد أورد أقوالاً لعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهما مماثلة لقول ابن عمر عن معاوية . والمقصود بكلمة أسود هنا : اسخى وأحلم .

١٨ ـ يقصد أن كل الثارات والأحقاد القديمة التي خلفتها الفتن والحروب قد جلعتها وراء ظهري ، وطويت صفحتها ، وهي دعوة لهم ليفتحوا معه صفحة جديدة من التعاون والبعد عن الفتن والنفاق .

١٩ ـ ابن كثير ـ البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٣٢ .

٢٠ ـ الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠٥ .

٢١ ـ ابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ ١ ص ١١ - ١٢ .

٢٢ ـ سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ١٢٨ .

٢٣ـ انظر مروج الذهب للمسعودي جـ ٣ ص ٣٩ - ٤١ حيث تجد حديثاً مفصلاً عن سهر معاوية على مصالح المسلمين ، وحديث المسعودي عن معاوية له أهميته، لأنه مؤرخ شيعي .

٢٤ ـ ليس معنى هذا أنه لم تحدث فتوحات في عهد معاوية ، فقد حدثت فتوحات مهمة ووصلت جيوشه في شمال إفريقيا الى تونس الحالية وأسس عقبة بن نافع مدينة القيروان ، كما أنه نجح في الاستيلاء على العديد من الجزر البيزنطية في البحر المتوسط مثل قبرص ورودس وكريت حتى حاصرت اساطيله مدينة القسطنطينية ذاتها .

٢٥ ـ انظر عن انتشار الأسلام في فارس كتاب الدعوة إلى الإسلام لمؤلفه توماس آرنولد ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

٢٦ ـ انظر فتوح البلدان للبلاذري ص ٧٦ .

٢٧ ـ الصوائف هي الغزوات التي كانت تنطلق من قواعدها الإسلامية لغزو بلاد الروم في الصيف، الشواتي هي التي كانت تنطلق في الشتاء.

٢٨ ـ ابن كثير ـ البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٢٦ وراجع ترجمة يزيد في المصادر الآتية . نسب قريش للمصعب الزبيري ص ١٢٧ وتاريخ الطبري جـ ٥ ص ٤٩٩ ـ ومنهاج السنة لابن تيمية جـ ٢ ص ٢٣٧ وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٤ ص ٣٥ ـ ٤٠ .

٢٩ ـ تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٥٣ .

٣٠ ـ العواصم من القواصم ص ٢٢٨ .

٣١ ـ البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٣٠ .

٣٢ ـ مروج الذهبي لمسعودي جـ ٣ ص ٧٥ .

٣٣ ـ انظر البداية والنهاية لابن كثيرجـ ٨ ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

٣٤ ـ د. عبد المنعم ماجد ـ التاريخ السياسي للدولة العربية جـ ٢ ص ٨٢ .

٣٥ ـ انظر موقف عبد الله بن عمر من الثورة في البخاري جـ ٤ ص ٢٣٠ طبعة الحلبي .

٣٦ ـ البداية والنهاية لإبن كثير جـ ٨ ص ٢١٦ .

٣٧ ـ المصدر السابق جـ ٨ ص ٢١٦ .

٣٨ ـ المصدر السابق جـ ٨ ص ٢١٦ وانظر منهاج السنة لابن تيمية جـ٢ ص ٢٣٥.

٣٩ ـ تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٤٨٤ .

٤٠ ـ تاريخ الأمم الإسلامية جـ ٢ ص ١٣٢ .

٤١ ـ انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٤ ص ١٣٩ وتاريخ خليفة بن خياط ص ٢٥٥ والمعارف لابن قتيبة ص ٣٥٢ والبداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٣٧ .

٤٢ ـ تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٥٥.

٤٣ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٤ ص ١٣٠.

٤٤ ـ المسعودي ـ مروج الذهب جـ ٣ ص ٨٢ .

٤٥ ـ انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٣٥ ونسب قريش ص ١٥٩ وتاريخ الطبري جـ ٥ ص ٥٣٥ والمعارف لابن قتيبة ص ٣٥٣ ، وأسد الغابة لابن الأثير جـ ٥ ص ١٤٤ .

٤٦ ـ صحيح البخاري جـ ٣ ص ٤٣ طبعة الحلبي .

٤٧ ـ البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٢٥٧ .

٤٨ ـ البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٥٧ .

٤٩ ـ العواصم من القواصم ص ٨٩ .

٥٠ ـ منهاج السنة جـ ٣ ص ١٨٩ .

٥١ ـ سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٤٧٧ .

٥٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٢٥٨ .

٥٣ ـ المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٥٨ .

٥٤ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٤ ص ١٤٥ .

٥٥ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٤ ص ١٤٥ .

٥٦ ـ المصدر السابق جـ ٤ ص ١٤٩ وما بعدها .

٥٧ ـ الكندي : الولاة والقضاه ص ٤١ - ٤٢ .

٥٨ ـ المصدر السابق ص ٤٧ .

٥٩ ، ٦٠ ـ انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٢٢٣ ـ المعارف لابن قتيبه تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٦٩ ، مروج الذهب للمسعودي جـ ٣ ص ٩٩ ، سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٤ ص ٢٤٦ .

٦١ ـ سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٤٦ .

٦٢ ـ البداية والنهاية جـ ٩ ص ٦٢ .

٦٣ ـ المقدمة جـ ٢ ص ٦٢٣ .

٦٤ ـ المقدمة جـ ٢ ص ٦٢٣ .

٦٥ ـ المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٢٣ .

٦٦ ـ انظر سير الأعلام للذهبي جـ ٤ ص ٢٤٩، وابن كثير ـ البدايةوالنهاية جـ ٩ ص ٦١ .

٦٧ ـانظر البداية والنهاية جـ ٩ ص ٦٥ .

٦٨ ـ المصدر السابق جـ ٩ ص ٦٥ .

٦٩ ، ٧٠ ـ انظر ترجمتة في المعارف لابن قتيبة ص ٣٥٩ وتاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٨٣ وتاريخ الطبري جـ ٦ ص ٤٩٦ ومروج الذهب للمسعودي جـ ٣ ص ١٦٦ وسير اعلام النبلاء للذهبي جـ ٤ ص ٣٤٧ .

٧١ ـ البداية والنهاية لابن كثير جـ ٩ ص ١٦٢ .

٧٢ ـ انظر تاريخ الطبري جـ ٦ ص ٤٣٦ .

٧٣ ـ المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٣٧ .

٧٤ ـ المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٩٦ .

٧٥ ، ٧٦ ـ انظر ترجمتة في تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٩٣ والطبري جـ ٦ ص ٥٠٥ ، وسير أعلام النبلاءللذهبي جـ ٥ ص ١١١ .

٧٧ ـ البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٧٨.

٧٨ ـ المصدر السابق جـ ٩ ص ١٧٨.

٧٩ ـ المصدر السابق جـ ٩ ص ١٧٨.

٨٠ ـ ابن عذاري ـ البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب جـ ١ ص ٤٧ .

٨١ ـ انظر : د. محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية العائدة إلى العصر الأموي ص ٦٣ .

٨٢ ـ تاريخ الطبري جـ ٦ ص ٥٤٦ .

٨٣ ـ المصدر السابق جـ ٦ ص ٥٣١.

٨٤ ـ البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٨٣ .

٨٥ ، ٨٦ ـ انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٣٣٠ وما بعدها . وتاريخ خليفة بن خياط ص ٣٢١ ، والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٩ ص ١٩٢ ، وسير اعلام النبلاء للذهبي جـ ٥ ص ١١٤ .

٨٧ ـ البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٢ .

٨٨ ـ المصدر السابق جـ ٩ ص ١٩٢ .

٨٩ ـ سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٢٠ .

٩٠ ـ المصدر السابق جـ ٥ ص ١١٨ .

٩١ ـ المصدر السابق جـ ٥ ص ١٣٢ .

٩٢ ـ المصدر السابق جـ ٥ ص ١٣٢ .

٩٣ ـ المصدر السابق جـ ٥ ص ١٣١ .

٩٤ ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٥٤٠ .

٩٥ ـ سير أعلام النبلاد للذهبي جـ ٥ ص ١٢٠ .

٩٦ ، ٩٧ ـ انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٥ ص ١٥٠ وتاريخ الطبري جـ ٦ ص ٥٧٤ ـ وتاريخ خليفة بن خياط ص ٣٣١ .

٩٨ ـ البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٣٢ .

٩٩ ـ المصدر السابق جـ ٩ ص ٢٣٢ .

١٠٠ ـ انظر ترجمته في تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٥٦ ـ تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٣١٦ ـ المعارف لابن قتيبة ص ٣٦٥ ـ تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٢٥ .

١٠١ ـ تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٢٠٢ .

١٠٢ ـ تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٢٠٤ .

١٠٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير جـ ٩ ص ٢٥١ .

١٠٤ - تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٢٠٢ .

١٠٥ - سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٣٥٢ .

١٠٦ - تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٢٠٣ .

١٠٧ - البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٥٣ .

١٠٨ - تاريخ الدولة العربية ص ٣٢٧ .

١٠٩ - تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٣٢٨ .

١١٠ ، ١١١ - انظر ترجمته في تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٦٣ وتاريخ اليعقوبي جـ ٢ص٣٣١ والطبري جـ ٧ ص ٨ وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٥ ص ٣٧٠ .

١١٢ - الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٨٩ .

١١٣ - المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٨٧ .

١١٤ ، ١١٥- انظر ترجمته في تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٦٨ - وتاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٣٣٥ - وتاريخ الطبري جـ ٧ ص ٢٩٨ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٥ ص ٣٧٤ .

١١٦ - جـ ٧ ص ٢٩٩ .

١١٧ ، ١١٨ - انظر في ترجمة مروان واخباره : تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٧٢ وتاريخ الطبري جـ ٧ ص ٣١١-٣١٢ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠ ص ٤٦.

١١٩ - البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٤٧ ، تاريخ الدولة العربية ص ٣٥٧ .

١٢٠ - الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٥ ص ٣١٠ .

١٢١ - الطبري جـ ٧ ص ٣١٢ .

١٢٢ - المصدر السابق جـ ٧ ص ٣١٢ .

١٢٣ - سورة آل عمران الآية ٢٦ .

١٢٤ ـ تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٤٢١ وما بعدها .

١٢٥ ـ انظر الدكتور محمد يوسف موسى . نظام الحكم في الإسلام ص ١٥ طبع دار الفكر العربي .

١٢٦ ـ انظر حول وجوب نصب الإمام أو الخليفة أو هل هو واجب عقلاً أو شرعاً وآراء العلماء في ذلك : الأحكام السلطانية للماواردي ص ٥ وما بعدها .

١٢٧ ـ انظر د. محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية. الطبعة السابعة ١٩٧٩ دار التراث. ص ٣٥ .

١٢٨ ـ البداية والنهاية جـ٥ ص ٢٥٠ .

١٢٩ ـ البداية والنهاية . مصدر سابق جـ ٥ ص ٢٥٠.

١٣٠ ـ هذا هو تعريف فقهاء النظم الإسلامية للخلافة ـ انظر الأحكام السلطانية للماوردي ص ٥ .

١٣١ ـ المصدر السابق .

١٣٢ ـ نقلا عن نظام الحكم في الإسلام ، مرجع سابق ص ٩٣ .

١٣٣ ـ انظر تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٤٢٨.

١٣٤ـ المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٢٨ .

١٣٥ ـ تاريخ الطبري . مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٢٨.

١٣٦ ـ نظام الحكم في الإسلام . مرجع سابق ص ١٢٠.

١٣٧ ـ المرجع السابق ص ١١٨.

١٣٨ ـ المرجع السابق .

١٣٩ ـ تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٢٨ .

١٤٠ ـ المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٢٩ .

١٤١ ـ انظر قصة الشورى كاملة في المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٢٧ وما بعدها .

١٤٢ ـ انظر نظام الحكم في الإسلام مرجع سابق ص ١٠٧ .

١٤٣ - السبئيون هم أتباع عبد الله بن سبأ، وهو يهودي إدعى الإسلام ليكيد له من الداخل وقد استطاع أن يخلق تياراً خطيراً جند له عدداً كبيراً من الناس للشغب على الخليفة عثمان وعماله على الأقاليم ، وصعد الأمر حتى انتهى بمقتل عثمان، ووضع الأمة كلها على أبوبة حرب أهلية . وهذه مجرد إشارة لأن هذا الأمر فصل في تاريخ الخلفاء الراشدين .

١٤٤ - تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٤٣٢ .

١٤٥ - العواصم من القواصم . لأبي بكر بن العربي ص ١٤٢ .

١٤٦ - تروى المصادر التاريخية ، أن عدداً من الصحابة لم يبايع علياً بالخلافة ومنهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، وغيرهما.وهذا لا يقتدح في بيعته لأن الإجماع ليس شرطاً في صحة الخلافة .

١٤٧ - هذه الأحداث كلها مفصلة في تاريخ الخلفاء الراشدين .

١٤٨ - الطبري جـ ٥ ص ١٤٦ وروى الحافظ ابن كثير، في البداية والنهاية جـ ٥ ص ٢٥٠-٢٥١ عن الشعبي، عن أبي وائل ، قال : « قيل لعلي بن أبي طالب : ألا تستخلف علينا ؟ قال: « ما استخلف رسول الله ﷺ فاستخلف ، ولكن أن يرد الله بالناس خيراً ، فسيجمعهم بعدي على خيرهم ، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم » وقال أبن كثير : اسناده جيد .

١٤٩ - المصدر السابق جـ ٥ ص ١٥٨ .

١٥٠ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ جـ ٣ ص ٢٢٢-٢٢٣ .

١٥١ - الطبري جـ ٥ ص ١٦٢ .

١٥٢ - نفسه جـ ٥ ص ١٦١ .

١٥٣ - روى هذ الحديث البخاري في صحيحه جـ ٤ ص ٢١٦، عن الحسن البصري ، الذي سمعه من أبي بكرة ، وأبو بكرة سمعه من النبي ﷺ .

١٥٤ - منهاج السنة النبوية للإمام ابن تيمية جـ ٢ ص ٢٤٢ .

١٥٥ ـ العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي ص ١٩٧ .

١٥٦ ـ هناك روايات مرجوحة تذهب إلى تخلف سعد بن عبادة عن بيعة أبي بكر في السقيفة .

١٥٧ ـ انظر : نظام الحكم في الإسلام . للدكتور محمد يوسف موسى. ص ١٢١ . نشر دار الغد العربي . القاهرة .

١٥٨ ـ المرجع السابق ص ١٢٠.

١٥٩ ـ المرجع السابق ص ١٢٠.

١٦٠ ـ المرجع السابق ص ١٢٠.

١٦١ ـ تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٤٢٨.

١٦٢ ـ انظر د. محمد ضياء الدين الريس . النظريات السياسية مرجع سابق ص ١٩٠.

١٦٣ ـ المقدمة جـ ٢ ص ٦١٣ .

١٦٤ ـ انظر منهاج السنة لابن تيمية جـ ١ ص ١٤٦ . والدكتور ضياء الدين الريس. النظريات السياسية ص ١٩٣.

١٦٥ ـ مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٠٤ .

١٦٦ ـ انظر تاريخ الطبري جـ ٦ ص ٥٥٠، وابن الأثير ، الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٣٩ .

١٦٧ ـ المصدرين السابقين ، نفس الصفحات .

١٦٨ ـ نظام الحكم في الإسلام . مرجع سابق ص ١٢٠.

١٦٩ ـ مقدمة ابن خلدلون . مصدر سابق جـ٢ ص ٦٠١.

١٧٠ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ ص ١٨٥.

١٧١ ـ نظام الحكم في الإسلام. د. محمد يوسف موسي ص ١٤٤.

١٧٢ ـ عباس العقاد . عبقرية الصديق ص ٣٧٥ .

١٧٣ ـ انظر د. سليمان الطماوي . عمر بن الخطاب ص ٧٦ .

١٧٤ ـ نقلاً عن الإسلام والخلافة للدكتور علي حسني الخربوطلي ص ٨٨ .

١٧٥ ـ د. سليمان الطماوي. المرجع السابق ص ٦٤.

١٧٦ ـ مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٠٢.

١٧٧ـ المقدمة جـ ٢ ص ٦٠٣.

١٧٨ ـ انظر عن تاريخ دمشق وأخبارها، معجم البلدان ، لياقوت الحموي جـ ٢ ص ٤٦٣ وما بعدها. دار صادر. بيروت .

١٧٩ ـ المقدمة جـ ٢ ص ٦٠٠ .

١٨٠ ـ المقدمة جـ ٢ ص ٦٠٠ـ ٦٠١ .

١٨١ ـ تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢١٧ .

١٨٢ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٣ ص ١٥٧ .

١٨٣ ـ جـ ٣ ص ١٨٥ .

١٨٤ ـ البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٠ .

١٨٥ ـ سير أعلام جـ ٣ ص ١٥٧.

١٨٦ ـ المقدمة جـ ٢ ص ٦٠٠ ، وهذا جزء من الآية ٣٥ من سورة ص .

١٨٧ ـ المقدمة جـ ٢ ص ٦٠٠ .

١٨٨ ـ انظر في ذلك تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٣٣٧ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ١٣٥. والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر جـ ٩ ص ٢٣٣ . ومنهاج السنة لابن تيمية جـ ٣ ص ١٨٥ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٣ ص ١٣٢ - ١٣٣. والفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبا ص ١٠٤ - ١٠٦.

١٨٩ ـ المقدمة جـ ٢ ص ٥٥٢ـ٥٥٣ .

١٩٠ ـ الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠٤ـ١٠٦.

١٩١ ـ المصدر السابق ص ١٠٥ .

١٩٢ـ انظر سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ١٢٨ .

١٩٣ ـ المقدمة جـ ٢ ص ٦٠٥ .

١٩٤ ـ المقدمة جـ ٢ ص ٦٠٦ .

١٩٥ ـ فتوح مصر وأخبارها .. ابن عبد الحكم ص ١٠٧ .

١٩٦ ـ منهاج السنة جـ ٣ ص ١٨٥ .

١٩٧ ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس .. لمؤرخ مجهول ص ٢٢ .

١٩٨ ـ سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٣٥٢ .

١٩٩ ـ تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ص ١٩٦ وما بعدها .

٢٠٠ ـ سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٣١ .

٢٠١ ـ البلاذري .. فتوح البلدان ص ١٨٢ .

٢٠٢ ـ انظر تفاصيل معركة ذات الصواري في فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٢٩ والدكتورة سعاد ماهر .. البحرية في مصر الإسلامية ص ٨٤ .

٢٠٣ـ انظر غزو معاوية لهذه الجزر والاستيلاء عليها في فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

٢٠٤ـ انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٣ ص ٤٥٨ .

٢٠٥ ـ الطبري جـ ٦ ص ٥٣٠.

٢٠٦ـ انظر د. ابراهيم العدوي ـ الأمويون والبيزنطيون ص ٢١٨.

٢٠٧ ـ فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١١٧ .

٢٠٨ ـ ابن عذاري ـ البيان المغرب جـ ١ ص ١٦ ـ ١٧ .

٢٠٩ ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ جـ ٣ ص ٤٦٦ .

٢١٠ ـ انظر تاريخ الغرب الكبير ـ محمد علي ديوز جـ ٢ ص ٣٥.

٢١١ - المالكي - رياض النفوس جـ ١ ص ٢٥.

٢١٢ - ابن عذاري - البيان المغرب جـ ١ ص ٢٨.

٢١٣ - انظر معجم البلدان لياقوت الحموي جـ ١ ص ٢٦٢ وما بعدها تحت كلمة الأندلس.

٢١٤ - انظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ٥٦١.

٢١٥ - انظر د. مختار العبادي - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٩.

٢١٦ - ابن عذاري - البيان المغرب جـ ٢ ص ٨ وانظر أيضاً عن معركة شذونة ابن عبد الحكم - فتوح مصر - ص ١٣٩ والكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٥٦٢ - ٥٦٣.

٢١٧ - الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة جـ ٢ ص ٧٤.

٢١٨ - الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٤ ص ٥٦٤.

٢١٩ - انظر د. السيد عبد العزيز سالم - المغرب الكبير جـ ٢ ص ٢٨٠.

٢٢٠ - معجم البلدان. لياقوت الحموي جـ ٢ ص ١٩٧.

٢٢١ - المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٤٦.

٢٢٢ - المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

٢٢٣ - المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٠٩.

٢٢٤ - المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٩٥.

٢٢٥ - الطبري جـ ٥ ص ٢٩٨.

٢٢٦ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ٤٤٨.

٢٢٧ - انظر فتوح البلدان للبلاذري ص ٥١٤.

٢٢٨ - انظر ترجمة قتيبة بن مسلم في المعارف لابن قتيبة ص ٤٠٦ - وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٤ ص ٤١٠.

٢٢٩ - البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٦٧.

٢٣٠ ـ انظر نص خطبة قتيبة في تاريخ الطبري جـ ٦ ص ٤٢٤ .

٢٣١ ـ انظر حركة الفتح الإسلامي للدكتور شكري فيصل ص ٢١٥ .

٢٣٢ ـ الطبري جـ ٤ ص ٣١٣.

٢٣٣ ـ د. شكري فيصل ، مرجع سابق ص ٢١٠ .

٢٣٤ ـ المرجع السابق .

٢٣٥ ـ تاريخ بخاري ص ٦٧ .

٢٣٦ ـ انظر الطبري جـ ٦ ص ٥٠٣.

٢٣٧ ـ فتوح البلدان ص ٥٣٠ وما بعدها .

٢٣٨ ـ الديبل مدينة مشهورة على ساحل بحرالهند وكانت قريبة من مكان بمدينة كراتشي الحالية في باكستان ـ انظر معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٩٥ .

٢٣٩ ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ص٥٣٥ .

٢٤٠ ـ المصدر السابق ص ٥٣٥.

٢٤١ ـ مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٥٨٧ .

٢٤٢ ـ تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٣٤٧ وما بعدها .

٢٤٣ ـ الطبري جـ ٥ ص ٣٨٩ .

٢٤٤ ـ المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٨٩ .

٢٤٥ ـ المصدر السابق جـ ٥ ص ٥٠٦ .

٢٤٦ ـ المصدر السابق جـ ٥ ص ٥٨٣ .

٢٤٧ ـ انظر أخباره كلها في المصدر السابق جـ ٥ ص ٥٦٩ وما بعدها .

٢٤٨ ـ انظر الطبري جـ ٦ ص ١٠٧ .

٢٤٩ ـ انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٥ ص ٣٨٩ .

٢٥٠ ـ الطبري جـ ٧ ص ١٦٠ وما بعدها .

٢٥١ ـ انظر أخبارهم في مقالات الإسلاميين للأشعري جـ ١ ص ١٥٦ - ١٨٩ .

٢٥٢ ـ الطبري جـ ٥ ص ٧٢ وما بعدها .

٢٥٣ ـ د. محمد الطيب النجار ـ الدولة الأموية ص ٦١ .

٢٥٤ ـ الطبري جـ ٥ ص ٣١٢ .

٢٥٥ ـ المصدر السابق جـ ٥ ص ٥٦٦ .

٢٥٦ ـ عن الخوارج النجدات ودولتهم ، راجع الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٢٠١ وما بعدها .

٢٥٧ ـ الطبري جـ ٦ ص ٣٠٩ وما بعدها .

٢٥٨ ـ انظر ترجمته في أسد الغابة لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٤٢ ، وسير أعلام النبلاء جـ٣ ص ٣٦٣ وما بعدها .

٢٥٩ ـ انظر تاريخ خليفة بن خياط ٢١٢ - ٢١٧ .

٢٦٠ ـ الطبري جـ ٦ ص ١٦٠ .

* * *

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم الجزري ت ٦٣٠هـ

١ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة . طبعة دار الشعب . تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا وآخرين .

٢ ـ الكامل في التاريخ ـ طبع دار صادر ـ بيروت ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م .

الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ت ٢٢٣هـ .

٣ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. طبع مكة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .

الأشعري : أبو الحسن علي بن إسماعيل ت ٣٢٤هـ.

٤ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م .

البخاري : أبو عبد الله محمدبن إسماعيل ت ٢٥٦هـ .

٥ ـ الجامع الصحيح ـ دار احياءالكتب العربية ـ القاهر ة.

البلاذري : أحمد بن يحيى ت ٢٧٩هـ.

٦ ـ فتوح البلدان ـ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد النهضة المصرية . القاهرج.

ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ت ٨٧٤هـ.

٧ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

ابن تيمية : أبو العابس أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٨هـ .

٨ ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، المطبعة الأميرية . القاهرة.

الجهشياري : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي ت ٣٣١هـ.

٩ ـ الوزراء والكتاب . طبع القاهرة ١٩٣٨ .

ابن حجر : أبو الفضل احمد بن علي العسقلاني ت ٨٥٢هـ

١٠ ـ الإصابة في تمييز الصحابة . مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة

ابن حنبل : أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني ت ٢٤١هـ.

١١ـ فضائل الصحابة ـ تحقيق وصي الله بن محمد عباس مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٣ـ١٩٨٣م.

ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ت ٨٠٨هـ.

١٢ـ المقدمة ـ تحقيق د. علي عبد الواحد وافي نهضة مصر ـ الطبعة الثالثة القاهرة.

خليفة ابن خياط : أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري ت ٢٤٠هـ.

١٣ ـ تاريخ خليفة بن خياط ـ تحقيق الدكتور أكرم العمري ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧٩م.

الذهبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ.

١٤ ـ سير أعلام النبلاء ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

أبن سعد : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ.

١٥ـ الطبقات الكبرى ـ دار صادر ـ بيروت.

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ.

١٦ ـ تاريخ الرسل والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الثانية . دار المعارف . القاهرة.

ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ت ٢٥٧ هـ.

١٧ ـ فتوح مصر وأخبارها ـ تحقيق محمد صبيح ـ دار التعاون للطبع والنشر ـ القاهرة سنة ١٩٧٤م.

ابن عذاري : أبو عبد الله محمد المراكشي ت نحو ٦٩٥هـ .

١٨ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ دار الثقافة ـ بيروت .

ابن العربي : أبو بكر محمد بن عبد الله ت ٥٤٣هـ

١٩ ـ العواصم من القواصم ـ تحقيق محب الدين الخطيب ـ مكتبة أسامه ابن زيد ـ بيروت ١٩٨٢م .

ابن قتيبة : أبو أحمد عبد الله بن مسلم الدينوري ت ٢٧٦هـ .

٢٠ ـ المعارف ـ تحقيق الدكتور ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ الطبعة الرابعة ـ القاهرة .

٢١ ـ الإمامة والسياسية «المنسوب له » تحقيق الدكتور طه الزيني ـ مطبعة الحلبي القاهرة.

ابن كثير : أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ.

٢٢ ـ البداية والنهاية ـ مكتبة المعارف ـ بيروت .

٢٣ ـ تفسير القرآن العظيم ـ تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين ـ القاهرة بدون تاريخ .

الكندي : أبو عمر محمد بن يوسف ت ٣٤٠هـ .

٢٤ ـ كتاب الولاة وكتاب القضاة ـ مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت ١٩٠٨م.

المقريزي :

٢٥ـ تحقيق محمد عرنوس المطبعة الإبراهيمية القاهرة بدون تاريخ.

مالك بن أنس : أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي ت ١٧٩هـ.

٢٦ ـ الموطأ ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الشعب القاهرة .

الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي ت ٥٤٠هـ.

٢٧ ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية ـ مطبعة الحلبي ـ القاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

المبرد : أبو العباس محمد بن زيد ت ٢٨٦هـ.

٢٨ ـ الكامل ـ مطبعة نهضة مصر ـ القاهرة .

المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين ت ٣٤٦هـ.

٢٩ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الفكر ـ القاهرة ١٩٧٣م.

ابن النديم : محمد بن إسحاق النديم ت ٤٣٨هـ.

٣٠ ـ الفهرست ـ طبع بيروت بدون تاريخ .

النووي : أبو زكريا يحيى بن شرف ت ٦٧٦ هـ .

٣١ ـ صحيح مسلم بشرح النووي المطبعة المصرية .

النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ.

٣٢ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ـ طبع القاهرة بدون تاريخ .

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام ت ١٢٣ أو ٢١٨هـ.

٣٣ ـ سيرة النبي ﷺ ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة بدون تاريخ .

الواقدي : محمد بن عمر ت ٢٠٧هـ.

٣٤ ـ المغازي ـ تحقيق مارسدن جونر ـ بيروت ١٩٦٦م

ياقوت الحموي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي ت ٦٢٦هـ.

٣٥ ـ معجم البلدان ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٧٧م.

اليعقوبي : أحمد بن إسحاق ت نحو ٢٩٢هـ .

٣٦ ـ تاريخ اليعقوبي ـ تار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٠م.

أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم ت ١٨٢هـ.

٣٧ ـ كتاب الخراج ـ تحقيق محمد إبراهيم البنا ـ دار الإصلاح ـ القاهرة.

ثانيا: المراجع :

أحمد أمين : ت ١٣٧٣هـ.

٣٨ ـ فجر الإسلام ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٧٥م .

آرنولد : توماس ووكر آرنولد ت ١٣٤٩هـ.

٣٩ ـ الدعوة إلى الإسلام ـ ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرين ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٧٠م.

بارتولد :

٤٠ ـ تاريخ الترك في آسيا الوسطى ـ ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ـ مكتبة الأنجلوا المصرية ـ القاهرة ١٩٥٨م.

بينز نورمان :

٤١ ـ الأمبراطورية ـ البيزنطية ـ ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٧م.

جواد علي :

٤٢ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ طبع بيروت ١٩٧٦ـ١٩٧٨م

حسن إبراهيم حسن :

٤٣ ـ تاريخ الإسلام السياسي ـ الجزء الأول طبع القاهرة ١٩٣٥م.

حمادة :الدكتور محمد ماهرحمادة .

٤٤ ـ الوثائق السياسية العائدة للعصر الأموي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٣٩٤هـ ـ١٩٧٤م

الخربوطلي : الدكتور علي حسني الخربوطلي.

٤٥ ـ تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ـ دار المعارف القاهرة ١٩٥٩م.

الخضري : الشيخ محمد عفيفي الخضري.

٤٦ ـ تاريخ الأمم الإسلامية ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ١٩٧٠م.

خليل : الدكتور عماد الدين خليل.

٤٧ ـ ملامح الأنقلاب الإسلامي في خلافة عمر بنعبد العزيز ـ الدار العلمية ـ بيروت ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

دبوز : محمد علي دبوز .

٤٨ ـ تاريخ المغرب الكبير جـ ٢ مطبعة الحلبي ـ القاهرة ١٩٦٣م.

دروزة : محمد عزة دروزة .

٤٩ ـ سيرة الرسول ص ـ طبع القاهرة ١٣٨٧هـ.

الراوي : ثابت إسماعيل الراوي .

٥٠ ـ العراق في العصر الأموي ـ مكبة الأندلس. بغداد ١٩٧٠م .

الريس :الدكتور محمد ضياء الدين الريس .

٥١ ـ النظريات السياسية الإسلامية ـ مكتبة مصر القاهرة ـ ١٩٦٢ .

زيتون : الدكتور محمد محمد شتا زيتون .

٥٢ ـ المسلمون في المغرب والأندلس ـ دار الوفاء للطباعة القاهرة ١٩٨٣م.

سالم : الدكتور السيد عبد العزيز سالم .

٥٣ ـ تاريخ الدولة العربية ـ مؤسسة الثقافة الجامعية ـ الأسكندرية ـ بدون تاريخ .

سيد قطب :

٥٤ ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام ـ طبع القاهرة ١٩٥٤م.

شلال : الدكتور كمال أبو زيد شلال .

٥٥ ـ الخلفاء الراشدون ـ دولة الإسلام الأولى طبع القاهرة ١٩٧٦م.

طه حسين : الدكتور طه حسين .

٥٦ ـ الفتنة الكبرى ـ دار المعارف . القاهرة ١٩٦١م.

عاشور : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

٥٧ ـ أوروبا العصور الوسطى ـ الانجلو المصرية القاهرة ١٩٧٨م.

العبادي : الدكتور احمد مختار العبادي .

٥٨ ـ دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ـ الطبعة الأولى . الأسكندورية ١٩٦٨م.

العدوي : الدكتور إبراهيم أحمد العدوي .

٥٩ ـ الأمويون والبيزنطيون ـ الطبعة الثانية .

العقاد : عباس محمود العقاد .

٦٠ ـ معاوية بن أبي سفيان في الميزان . الطبعة الأولى ـ دار الهلال ـ القاهرة.

الغزالي : الشيخ محمد الغزالي .

٦١ ـ فقه السيرة ـ طبع القاهرة ١٣٧٣هـ .

فهلوزن : يوليوس فهلوزن .

٦٢ ـ تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٨م.

فيصل : الدكتور شكري فيصل :

٦٣ ـ حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٥٢م

كاشف : الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف .

٦٤ ـ مصر في فجر الإسلام ـ دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٧٠م.

٦٥ ـ الوليد بن عبد الملك ـ مكتبة مصر ـ القاهرة ١٩٦٣ .

كرد علي : محمد بن كرد علي ت ١٣٧٢هـ.

٦٦ ـ الإسلام والحضارة العربية ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٨م

لين بول : ستانلي لين بول .

٦٧ ـ سيرة القاهرة ـ ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وآخرين ـ طبع القاهرة ١٩٥٠م

ماجد : الدكتور عبد المنعم ماجد .

٦٨ ـ تاريخ الدولة العربية جـ ٢ .

محمود : الدكتور حسن أحمد محمود .

٦٩ ـ الإسلام في آسيا الوسطى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٢م.

ناجي معروف :

٧٠ ـ اصالة الحضارة العربية ـ طبع بغداد ١٩٦٩م .

النجار : الدكتور محمد الطيب النجار .

٧١ ـ الدولة الأموية في المشرق ـ دار الاتحاد العربي للطباعة ـ القاهرة ١٩٨١م .

الندوي : أبو الحسن علي الحسني الندوي .

٧٢ ـ السيرة النبوية ـ طبع جدة ١٩٧٩م .

هيكل : الدكتور محمد حسين هيكل .

٧٣ ـ الصدق أبو بكر ـ دار المعارف . القاهرة ١٩٧٩م.

٧٤ ـ الفاروق عمر ـ دار المعارف . القاهرة ١٩٧٧ .

* * *

الفهارس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٧/١١٧٨١

I.S.B.N
977 - 19 - 4534 - 3



للكمبيوتر . الطباعة . التصوير
ت : ٣٧٥٧٠٥٩ / ٥٩٠٩٠٥٠ القاهرة